

السيد حمدي يحظيه



المقاومة الصحراوية السلمية:

لا بديلا عن تقرير المصير

الإهداء:

أهدي هذا العمل البسيط إلى أبطال انتفاضة الاستقلال، وإلى كل الصحراويين الذين خفقت قلوبهم مع كل مشهد رسمه دم المنتفضين على الشارع والجدران وفي صفحات التاريخ.
لقد شحنتم دم شعبكم بدفق من الأمل والحماس، وأعدتم للوطن بريق مجده.
وحتى لو قضينا حياتنا نكتب عن ملحمتكم فلن نضع نقطة النهاية. لقد صنعتم لنا تاريخنا أكبر منا. فكيف نكتبه؟

المؤلف.

المقال الأول:

شعب يتحدى التصفية

استهلال:

الصحراويون شعب قليل عددا وأرضهم غنية واستراتيجية ...

مختل ظل الذين أرادوا احتلال الصحراء الغربية يظنون أنه نقطة ضعف يمكن استغلالها للقضاء على هذا الشعب وعلى ما يملك من خيرات. لكن نقطة الضعف تلك كانت هي نقطة القوة التي ارتكز عليها الصحراويون ليصنعوا تاريخا أكبر منهم ومن أرضهم. لقد كتب لهم القدر أن ينتموا إلى الشعوب التي تصنع تاريخا أكبر منها، وحين تحاول إن تكتبه لا تستطيع وتلك مأساة التاريخ.

كل الذين حاولوا الوصول إلى الصحراء الغربية بنوا إستراتيجيتهم على القضاء على شعب الصحراء وتصفيته بالقوة، لكن ذلك كان خطأهم الفادح الذي وقعوا فيه.

لن نعود إلى التاريخ كثيرا كي نبرهن على ما كتبنا، وسنكتفي فقط بذكر الحالة التي قام بها المغرب ضد الصحراويين كي يحتل أرضهم. ببساطة حاول القضاء عليهم وتصفيتهم جسديا كي تبقى له الأرض الكبيرة الغنية، لكنه لم يكن يدري انه بفعله هذا كتب لهم حياة أطول وتاريخا مجيدا ما كانوا يحلمون أنهم سيكتبونه ذات يوم، ومن جهة أخرى كتب لنفسه تاريخا بالغ السوء سيظل المغاربة على مدى وجودهم يخجلون من ذكره.

وقع احتلال الصحراء الغربية من طرف المغرب في وقت (السبعينيات) بدأت فيه الشعوب المستعمرة تستيقظ وتتحرك لتتخلص من ما بقى وتبقى من ظاهرة الاستعمار التي تعتبر عار التاريخ الحديث. كانت الثورات المسلحة آنذاك، أو ثورات الكلاش انكوف، هي العقيدة التحررية التي اعتنقتها الشعوب المطالبة بحق ما، خاصة الحق في تقرير المصير والحرية، وقد نجحت الكثير من تلك الثورات في ذلك التاريخ بفضل البندقية مثلما حدث في زيمبابي وانغولا وارتيريا وجنوب افريقيا.

في الصحراء الغربية اندلع الكفاح المسلح المطالب بالحرية سنة 1973م حين كانت ثورات الكلاش انكوف في أوج شهرتها وانتشارها، لكن بعد خمسة عشر سنة من الكفاح حدثت طفرة مفاجئة في المناخ السياسي العام؛ سقطت إمبراطوريات، زالت دول من الخريطة، وهبت رياح قوية أطاحت بالكثير مما كان العالم يظن انه باق خالد لا يسقط ولا يتحطم.

في المنطقة وجدت الثورة الصحراوية - آخر الثورات المسلحة الحقيقية في العالم- نفسها وحيدة في ميدان المعركة، وحولها عالم يرفع الرايات الزرقاء والبيضاء يطالب بالسلام والمفاوضات.

صدق الصحراويون السلام وأعادوا بنادقهم إلى مخازنها، لكن بعد سنوات من الانتظار على مضض فتحوا أعينهم فجأة فاكتشفوا أن السلام الذي بشرهم العالم به قد تاه في صحرائهم، وتحول إلى شيء يشبه السراب.

وجدوا أنفسهم في عالم جديد حقا؛ انتفاضات، مظاهرات، جدران تسقط وأنظمة تهوى من عليائها، الحناجر تصدح بالشعارات، والأصوات كلها مسموح بها ما عدا صوت الرصاص الذي أصبح إطلاقه مرتبطا بالاحتفالات. عالم جديد حل محل العالم القديم؛ الكفاح السلمي بدل المسلح، المظاهرة بدل المعركة، العلم بدل البندقية، الشعار بدل القنبلة وحقوق الإنسان أولوية الأولويات.

بالنسبة للصحراويين لا محل للتردد. كان عليهم التكيف مع المناخ الجديد ومع توجه العالم الذي أصبح ينظر إلى الأشياء بعين أخرى ومن زاوية ثانية. بدأوا الكفاح السلمي على شكل انتفاضة متواصلة من أجل الحصول على حق تقرير المصير الذي تعترف كل القوانين الدولية به خاصة التي يعتنقها العالم الجديد ويتغنى بها.

وبين الكفاح السلمي من جهة وإمكانية العودة إلى الكفاح المسلح الشرعي بقيت القضية الصحراوية معلقة بخيط رفيع، وبقي العالم بأسره مسؤولا عن تدهور الوضع إن هو لم يهتدي إلى السلام الذي تاه في هذه الصحراء التي لا تهدأ إلا لتثور.

إن عدم تمكين الصحراويين من حقهم في تقرير المصير، الذي يعترف به العالم لهم، قد يجعل مبادئ العالم الجديد تخطئ في الصحراء الغربية وتصاب بنكسة، فالكفاح المسلح والسلمي حاضرا في النفسية الصحراوية في وقت معا، وما لم تتحقق الأحلام التاريخية لهذا الشعب فكل شيء قابل للمراجعة.

إن المسؤولية تقع بين أيدي العالم وهو وحده من يجب أن يجد لها حلا عادلا يتطابق والقانون وهذا قبل أن تثور الرياح في الصحراء التي لا أحد يمكن أن يتنبأ فيها بحالة الطقس.

أ) هتك حقوق شعب:

1- إمكانية التصفية...؟

هل يمكن أن تتم تصفية الشعب الصحراوي إذا عاند؟ سؤال طُرح بكل تأكيد في القصر الملكي قبل غزو الصحراء الغربية، وكان جوابه يتأرجح بين نعم ولا. لقد كان عدم الحسم في الإجابة مدعاة لتجريب عملية التصفية المريعة. بعض الذين تم اعتقالهم في الانتفاضة الأخيرة، قال لهم رجال الأمن: " صدق الحسن الثاني حين قال للدليمي يجب تصفية هؤلاء الصحراويون."

في الواقع كانت هناك خطة لتصفية الشعب الصحراوي عرقيا حتى لا يبقى منه من يحكي على الأجيال القادمة ما حدث.

فبفعل احتلال المغرب للصحراء الغربية تم هتك حق شعب هذا الإقليم كله في تقرير المصير، وتحت غطاء هذه العملية غير المعقولة تم التعسف في كل الحقوق الإنسانية المدنية البسيطة الأخرى التي من الممكن أن يتمتع بها إنسان عادي. فبين ليلة وضحاها وجد هذا الشعب نفسه عرضة للتصفية الجسدية بواسطة كل آلات الدمار المعنوي والنفسي التي اخترعها الإنسان. كان البعض يظن أن الأمر هو مجرد خطأ بسيط قد يصلح خلال أيام وتعود المياه إلى مجاريها، البعض الآخر ترك عائلته وذويه في داره وحين عاد لم يجد لهم أثرا فبقى ينتظر حتى شاب رأسه، وتحطم قلبه دون أن ينعم برؤيتهم. هناك أيضا من سمع صوت أمه أو أبيه للمرة الأخيرة سنة 1975م، وذهب للمنفى أو للسجن وماتوا دون أن يتمكن من سماع صوتهم ولو في الهاتف أو يراهم في الصور. في حالات أخرى ترك البعض أولاده في المدن التي احتلت وهم رُضِع، وحين سمحت الأمم المتحدة بتبادل الزيارات بعد ثلاثين سنة التقى معهم لكنه لم يكن متأكدا إن كانوا هم أم لا. وجد البعض قد تزوج وصار له أولاد، والبعض شاب رأسه دون ان يراه أو يتمكن من توجيهه وتعليمه.

لقد هتك الاحتلال كل الحقوق المدنية لهذا الشعب، وأكثر من ذلك عبث بكل القوانين الدولية مثل اتفاقية جنيف والإعلان العالمي لحقوق الإنسان، وحق تقرير المصير وحقوق اللاجئين وما إلى ذلك من هذه الحقوق.

كان الاحتلال المغربي للصحراء الغربية احتلالا بشعا عصيا على الوصف والتصنيف. فمنذ أيامه الأولى أشاع هذا الاحتلال مناخا من الإرهاب المدروس في جو المدن الصحراوية، وحولها إلى مدن مرتعبة خائفة لا يستطيع أي أحد أن ينام فيها ساعة هادئة من الزمن دون أن يوقظ للتفتيش أو التحقيق.

فمنذ اليوم الأول لحدوث فعل الاحتلال انتقلت 5% من ما مجموعه 15% (نسبة المجندين في سلك الأمن المغربي من مجموع السكان) من الموظفين في قوات حفظ النظام إلى الصحراء الغربية لتقوم بحقق المدن الصحراوية بداء الإرهاب لتركييع الصحراويين بالعصا.

إن مناخ الخوف الذي بسطته المملكة المغربية في الصحراء الغربية، لإرهاب ما تبقى فيها من السكان، جعل حقوق الإنسان في هذا الإقليم تنزوي إلى الحضيض. لم يبق أي صحراوي في أي مكان تصله سلطة المخزن دون أن يطاله إرهاب العسا المغربية، بالمقابل احتقنت النفوس بالغضب والمرارة. من زاوية ثانية جعل ذلك التصرف البشع الصحراويين يتمسكون أكثر بحق تقرير المصير والاستقلال، ويعتبرونه حقا مقدسا لا يمكن التراجع عنه.

فمع نهاية 1975م وبداية 1976م كانت الصحراء الغربية كلها تحت الحصار بكل صنوفه. في الرباط، حين أحست المملكة المغربية أن الصحراويين يعاندونها، تشكلت لجنة أمنية موسعة في نهاية نوفمبر 1975م أسندت لها مهمة قدرة هي غربة الصحراويين في الإقليم وكذا المتواجدين منهم في المغرب، والتنكيل بكل الذين تشم فيهم رائحة الرفض للاحتلال أو لهم علاقة بالبوليزاريو.

في يناير 1976م كانت بين أيدي قوات الأمن المغربية قوائم بآلاف الأشخاص الذين يجب أن يقضى عليهم أو تغسل أدمغتهم أو يسجنون حتى ينسون مطلب الاستقلال أو يبقون في السجن حتى يموتون. اللوائح شملت الذين يشك المغاربة في تعاطفهم مع تقرير المصير أو لهم علاقة انتماء للبوليزاريو أو لهم أقارب في قيادتها، أو لهم عائلات نزحت إلى مخيمات اللاجئين الصحراويين، وحتى الذين لهم أسماء تشبه أسماء عائلات قياديي الجبهة سطر تحت أسمائهم بالأحمر.

في الميدان، حُوصرت الصحراء الغربية بكاملها، من أقصى نقطة تسيطر عليها القوات المغربية الموريتانية في الجنوب إلى أقصى نقطة يتواجد فيها صحراوي في العمق المغربي. بدأت القوات المكلفة بتنفيذ خطة الحصار بتمشيط المنطقة حجرا حجرا وتزحف في كل الاتجاهات مستعملة كل أساليب الإبادة مثل رمي الناس أحياء من الطائرات العمودية والذي تكلفت به فرقة من القوات الملكية تحت قيادة الكولونيل بن عثمان. قامت الحلمة أيضا بعمليات دهم بالسيارات والدبابات لكل الذين حاولوا رفض الأوامر بإخلاء بعض المناطق التي أعلنت مناطق عسكرية. إن حدوث هذا بشع جدا، لكن العملية الأكثر بشاعة من ذلك هي عمليات الدفن الجماعية للناس وهم أحياء خاصة في الليل، وتكلفت بذلك فرقة عسكرية أخرى تحت قيادة الجنرال المدعو العمراني. وحسب شهود عيان لعملية من هذه العمليات فإن 50 صحراويا يكونون قد دفنوا أحياء في رمال " الزبارة" قرب جديريه، وأن عمليات أخرى حدثت قرب لمسيد أما مجموعات أخرى فإنه من المؤكد أنه تم رميها في المحيط الأطلسي من خلال طائرات عسكرية مغربية..

أما ما كان الصحراويون يملكون من مواشي فقد أبيدت بالرشاشات وتغذى عليها الجيش وما نجا منها فقد هام في الصحراء ليموت عطشا وجوعا بعد ردم الآبار ومصادر المياه أو تسميمها.

في المدن والتجمعات السكنية كانت القوات المغربية العسكرية والمدنية في انتظار الهاربين لتغربلهم وتعتقل المطلوبين. ففي أيام قليلة أصبحت مدن الصحراء الغربية والأحياء الصحراوية في الجنوب المغربي تحت قانون الطوارئ للقبض على من تبقى من المطلوبين أو المشتبه فيهم.

حين تمت تصفية الصحراء من كل من له علاقة بالبوليزاريو أو متعاطف مع تقرير المصير، قامت مجموعات كوماندوس أخرى مدربة معدة خصيصا لمهمة الخطف باقتحام بعض الجيوب الجامعية التي يتواجد فيها صحراويون في العمق المغربي. تم اختطاف الكثير من الشبان جماعات وأفراد من فوق مقاعد الدراسة عنوة ليذهبون في حالة رعب إلى مصير مجهول لا أحد من ذويهم يعرف عنه أي شيء. وحتى ذويهم تم إرهابهم حين تسألوا عن مصير المخطوفين، وفرض عليهم بالقوة ان ينكروا

أي علاقة لهم بهم وإلا يلحقوا بهم. وقع الجميع تحت التهديد، وأصبحت العائلات التي أختطف أفراد منها في عين الاتهام، لا أحد يستطيع أن يسألها أو يتعامل معها كأنما هي مصابة بالجذام.

كانت الحملة ضد الصحراويين شنيعة وغير أخلاقية ومخالفة لكل الحقوق والقوانين، وخلفت وراءها جرائم ضد الإنسانية لا يمكن نسيانها أو السكوت عليها.

2- لن ترون الشمس بعد اليوم:

في شوارع المدن الصحراوية انتشرت جموع كبيرة من الشرطة السرية ورجال الأمن تتحسس المنازل وتجس النبض خاصة في النهار. كانت مهمتهم إظهار نوع من التعاطف مع ذوي المختطفين، لكن الحقيقة أن ذلك لم يكن سوى طريقة لطيفة لاستدراجهم إلى اللحاق بهم في السجن. كانوا يقولون لهم: لماذا ألقى القبض على ذويكم؟ وحين يشمون في جوابهم رائحة التذمر مما حدث أو مما لحق بهم أو بذويهم تأتيهم الشرطة في اليوم الموالي لتسوقهم إلى مصير الذين سبقوهم.

كانت السجون كثيرة في المغرب أو بعبارة أكثر دقة، كان المغرب هو البلد الذي يوجد فيه أكثر وأجمل عدد من الفنادق، لكن أيضا أكثر وأبشع عدد من السجون المخيفة. ففي مقونة الرهيبه كان السياح الذين يرتادون فندق Hotel Dades يتجولون عند سفح الجبل في مروج الزهور الجميلة، وهم لا يدرون أن قريبهم يقع سجن رهيب تفوح منه رائحة الموتى الأحياء، ولا فرق فيه بين كرامة الإنسان والحشرة. كان رجال الأمن المغاربة يقولون للصحراويين الذين كان الاحتلال المغربي يريد معاقبتهم في مقونة: "أنتم ذاهبون إلى الفسحة" ويعنون بها أن قرب السجن يوجد الفندق الجميل الذي يرتاده السياح. +

حُشد الصحراويون المعتقلون معصوبي الأعين في ساحات مسيجة وفي ملاعب رياضية دون معرفة هل هم في الليل أو في النهار، ودون أن يعرف أحدهم الآخر. كان بينهم الأباء وأبنائهم وبناتهم، والأخوة وأخواتهم، لكن كان ممنوع عليهم رؤية بعضهم البعض، وممنوع أن يرفع أحدهم صوته بالسؤال عن هل لديه أقارب بين المحيطين به. مشهد مشين لا يمكن أن يُنسى عبر التاريخ، وحتى لو تعاقبت السنوات والقرون فإن أحفاد أولئك الصحراويين الذين لحق الأذى بكرامتهم سيظلون يذكرون إهانة المملكة المغربية لجدودهم.

وبفظافة وخشونة تم شحن الآلاف من المعتقلين الصحراويين في سيارات عسكرية كبيرة راحت تطوي بهم الأرض حتى وصلوا إلى السجون التي سيقضون فيها العقوبة القاسية. لم توجه لهم تهمة ولم تحرر لهم ملفات، لم يحاكموا أو يخصص لهم محامون، أما أثناء الاستنطاق فكان السؤال الوحيد الموجه إليهم هو: هل تعرف البوليزاريو، هل تريد الاستقلال، هل فلان أخوك؟ أما المعتقلون فكانوا يعرفون أن تهمتهم الوحيدة هي أنهم صحراويون يرفضون الاحتلال ويطلبون بتقرير المصير. تم توزيعهم على مراكز عديدة مثل درب مولاي الشريف، لكنيطرة، أكدز، بولهارز، سطات، الرباط لكن أكبر عدد منهم زج به في سجن قلعة مقونة الرهيب الذي تقشع الأبدان لذكره في المغرب. وحسب الناجين منهم بعد ذلك، فإن السجناء حين يستلمونهم من قوات الأمن، كانوا ينزعون العصا عن أعينهم ثم ينهالون عليهم بالعصي على الرؤوس

والوجوه حتى تسيل الدماء، ولا يدخل الشخص إلى زنانتة حتى تتلطح العصا بدمه. حين يغرق جسمه كله في الدم يدفعونه بقوة إلى الداخل ويقولون له: " لن ترى الشمس بعد اليوم. "

جملة رهيبة لها تأثير ببيكولوجي مدمر على النفس البشرية في كل العصور. في الحقيقة إن سجن الصحراويين على الهوية وبالجملة لم يكن بقصد العقاب، لكن كان بقصد التصفية الجسدية أو النفسية المروعة. كانوا يأخذونهم فرادى وجماعات إلى الأقبية المظلمة في الليالي الباردة ويغطسونهم في مياه مجاري الصرف الصحي التابعة للسجن، ثم يمررونهم على وسائل تعذيب أخرى، وحين يحسون أن الإحساس مات في شخص ما يوقظونه بالضرب ويقولون له: "أخطي السياسة تخطيك العصا." كانوا أيضا يطلبون منهم التبرؤ من القضية الوطنية ومن أبنائهم للإفراج عنهم، لكن السجناء كانوا يعتبرون حرية وطنهم هي حريتهم الشخصية. لقد تعرضوا لكل أصناف التعذيب التي من الممكن أن تخطر على بال إنس أو جن. اغتصبوا النساء أمام أقاربهن والرجال أمام النساء، ومارسوا كل الفظاعات غير الإنسانية التي تحط بالبشر وتجرده من كرامته، ولو لم يكن هؤلاء صحراويون سجنوا من أجل قضية عادلة، كانوا ذابوا وتحطموا تحت التعذيب أو انهاروا عصبيا ونفسيا. لقد أنقذت هؤلاء السجناء طبيعتهم وثقافتهم الموروثة من تاريخهم التي تحترق وتتحدى كل من يريد أن يفرض عليهم ملكا أو حكما لا يريدونه. كانت المملكة المغربية قد قضت بالعصا على ثورات الريف والأمازيغ وظنت أن ذلك الإجراء قد ينفع مع الصحراويين، لكن لم تجن من العملية سوى خسارة قلوب وسيوف هؤلاء الجيران وتألبيهم ضدها إلى الأبد.

3- الأرقام تتحدث عن تفاصيل مروعة...

مع نهاية الثمانينيات بدأ هواء الديمقراطية يتسرب إلى رثة العالم بعد الزلزال الذي بدأ يحرك الكرة الأرضية سياسيا. في الصحراء الغربية زرعت الأمم المتحدة بعض ورود السلام في طريق الصحراويين، ونصحتهم أن يذهبوا- بمساعدتها- إلى تقرير مصيرهم سلميا بدل العمل العسكري. على سعيد حقوق الإنسان نشطت المنظمات الحقوقية العالمية، خاصة منظمة العفو الدولية ومرصد حقوق الإنسان، وقامت بحملة كبيرة لفتح نوافذ وأبواب كل السجون في العالم ليشم الناس هواء الديمقراطية الجديد خاصة سجناء الرأي والحقوقيين.

ففي سنة 1990م شمت منظمة العفو الدولية رائحة ما يفوح من سجون المغرب الرهيبية، فطلبت أن تزورها لكن مصيرها كان الطرد الفظيع غير اللائق بمنظمة مثلها. بدأت تضغط على المغرب، وحين حل يونيو 1991م بدأ العالم يسمع بحقائق مروعة، لم تكن مسجلة، قادمة من الصحراء الغربية التي حولها المغرب سنة 1975م إلى ثكنة عسكرية بعد أن احتلها بالقوة ضد إرادة شعبها، وأغلقها في وجه العالم والإعلام وبدأ يمارس فيها وحشيته. تحت الضغط، تم الإفراج عن 320 موقوف صحراوي من الذين اختطفوا سنة 1975م وظل المغرب ينفي وجودهم في سجون طيلة احتلاله للإقليم. أفرج عنهم في الظلام، وبطريقة سرية حتى لا يلتقي بهم أو يصورهم أو يتحدث معهم أحد عن ما لحق بهم من إهانة. كانوا يهاكل عظمية خارجة من مقبرة، بعضهم فاقد تفاعل الحواس مع العالم الخارجي، والبعض فاقد الذاكرة، والكثير منهم يعد الأيام الباقية له على قيد الحياة. بدأت التقارير تتوالى عن حقوق الإنسان في الصحراء الغربية والأرقام التي لا تكاد تصدق. كل التقارير الدولية والصحراوية تشترك في تعريف ما حدث للصحراويين بأنه يندرج تحت عنوان الاختفاء القسري، وهو جريمة في القانون الدولي ومحرم عالميا، وأنه بدأ في الإقليم منذ نهاية 1975م عندما تم اختطاف آلاف الصحراويين دفعة

واحدة. مع نهاية 1979م كان 15 الفا قد تعرضوا للاختفاء القسري، وعدد غير معروف مورست عليه الرقابة والمتابعة والتحقيق، أما الذين تعرضوا للاغتيال السياسي منذ بداية الغزو وبشتى الطرق فوصل إلى حوالي ألف صحراوي، أما المهجرين إلى داخل المغرب فكانوا حوالي 15 ألفا، بينما تم تشريد حوالي 200 ألف.

وحسب تقرير منظمة العفو الدولية الصادر بتاريخ 28 غشت 1991م، فإن 50 رجلا و10 نساء قد أطلق سراحهم أيضا من السجن لكحل بالعيون بتاريخ 19 يونيو 91م، وهؤلاء هم الذين تبقوا مما يقارب 200 شخص تم اعتقالهم سنة 1987م أثناء زيارة البعثة الأممية إلى الصحراء الغربية على أثر خروجهم سلميا للمطالبة بتقرير المصير والاستقلال. كانت الخسائر كبيرة في صفوف الصحراويين المدنيين في السجون المغربية، فقد خلفوا وراءهم ما بين 57 و70 شهيدا، وأعداد غير محصية من المعاقين جسديا ونفسيا، أما الملف السري الخطير فهو وجود حوالي 512 مفقودا إلى حد الآن في أماكن سرية، أو قد يكون إرهاب الدولة المغربية قد صفاهم وانضموا إلى لائحة الشهداء. ورغم أن المغرب ينكر وجود هؤلاء في حدائقه السرية ومعتقلاته إلا أن الصحراويين يحتفظون بالدليل وهو أسماء هؤلاء وصورهم، ويطالبون بالكشف عن مصيرهم أحياء أو أمواتا.

إن ما ارتكبهته المملكة المغربية في حق الصحراويين من إرهاب ممنهج يعتبر جريمة إنسانية ستظل حاضرة في الذاكرة، والتاريخ وحده هو الذي سيعرف متى ستنسى. والمشكلة أن المغرب ظل يرفض باستمرار التصرف في الموضوع بحكمة وبطريقة حضارية، فهو لا زال ينكر المفقودين والشهداء، ويرفض أن يدل ذويهم عليهم أحياء، أو يدلهم عليهم في المقابر ليستلمون جثثهم ويدفنونها في مكان يرتاحون إليه. إن هذا النظام الذي انتهك حق الناس أحياء انتهك حقوقهم أيضا وهم موتى فلم يعيد المتوفين منهم إلى ذويهم ولم يشعرهم أين دفنوا..

4- شهادات الذين رأوا الشمس:

" إن الشروط جد صعبة في السجون. لقد كان يتعين معاقبة عائلات قيادات جبهة البوليساريو. كان المعتقلون كثيرون من بينهم رجال ونساء وبينهم شيوخ تجاوز بعضهم الثمانين. وكذلك كان هناك أطفال مثل محمد الشيخ الذي توفي في عمر الرابعة عشرة تحت التعذيب. وكذا منى التي لا يتجاوز سنها الثانية عشر والتي لا أعرف مصيرها."

شهادة أحد حراس سجن مقونة

" أطلقوا سراحهم ليموتوا في الشارع. بعد أن تأكد السجانون أن المساجين سيموتون بسبب الأمراض والانهيار الجسدي والنفسي. أطلقوا سراحهم ليموتوا بعيدا عن السجن حتى لا يقال انهم ماتوا فيه."

كلمة قالها صحراوي شارك في جنازة مولاي احمد الليلي الذي قضى خمسة عشر سنة في السجن وتوفي في اليوم الموالي لإطلاق سراحه يوم 22 يونيو 1991م.

الذين خرجوا من السجن وبقوا أحياء، بدأوا يحسون بوقع الحياة حولهم ببطء بعد أن تأكد لهم فعلا انهم أحياء يتنفسون. بدأوا يشعرون بالناس حولهم، وبالواقع، وعاد إليهم الإحساس بتلمس الأشياء وبرؤيتها بعد ان فقدوها في السجن. لم يكن أي منهم في البداية يصدق انه نجا من الموت بعد كل الذي وقع له وعليه ، ومنهم من بدأ يشك فعلا في أنه عاش في ظلمة مقونة واكدز كل هذه السنوات. لا أحد منهم يصدق، لكن العلامات الغائرة في نفوسهم وعلى أجسادهم تتكلم بدلا منهم، وترغمهم على تصديق الحقيقة. خرجوا إلى الشوارع ورأوا الضوء، شموا الهواء وبدأوا يجيبون بوعي حاد على الأسئلة التي كانت تطرح عليهم من طرف أولادهم وذويهم، وحتى من طرف بعض الصحف التي كانت تسرق لقاءات سرية معهم. أما الذين خرجوا وفيهم بقية حياة، والذين احتفظوا بعقولهم سليمة وبذاكراتهم متقدة، بعد رحلة السجن والعذاب، فقد قرروا مواصلة النضال والتحدث بأسم كل الصحراويين، فهم يرون انه لم يعد لديهم ما يخسرون بعد أن خسروا حياتهم، وفقدوا أي أمل ما عدا الأمل في القضية الوطنية ومستقبل الشعب الصحراوي. هؤلاء أصبحت الحياة بالنسبة لهم في الزنزانة أو في الشارع سيان، والكثير منهم فضل لو كان مات شهيدا تحت التعذيب ليدخل التاريخ كوطني قضى حياته في السجن حتى الشهادة. بعد الخروج من السجن أصبح هؤلاء أكثر جسارة من ذي قبل. أصبح هؤلاء يفكرون ويتحدثون بصوت مرتفع مسموع في وجه سلطات الاحتلال يطالبونها بالرحيل بعدما خسرت معركة كسب قلوب وسيوف الصحراويين وودهم. بدأ هؤلاء رحلة جديدة من الكفاح السلمي تحت شعار "لا بديل عن تقرير المصير" يؤازرهم في ذلك شارع صحراوي متماسك ومتحد ضد الاحتلال.

إن الصحراويين الذين رأوا الشمس بعد أكثر من خمسة عشر سنة في ظلمة الزنزانة أو ما يسمونه هم قبور الأحياء، يحكون عن التجربة المأسوية التي عاشوها بطريقة تجعل المستمع إلى الحكى يقشعر جلده أو يقف شعر رأسه بفعل الوقع الحزين والمروع لذكريات هؤلاء. إن ما تعرضوا له في السجن من أساليب تعذيب وإرهاب جسدي ونفسي وفكري لا يمكن أن يمارسه بشر على البهائم، ولم يحدث في أي عصر من عصور التوحش. شيء فظيع، مقزز، حقير يدعو إلى البكاء والكمذ والتحطم النفسي.

حين كنت أعمل صحفيا في اللجنة الصحراوية للاستفتاء، تمكنت من لقاء أحد الذين نجوا بأعجوبة من سجن قلعة مقونة، وهو الخضير محمد عياد. كنت أستمع إليه يحكي ولا أستمع إليه في نفس الوقت، وأحيانا أطلب منه ان يتوقف عن الحكى كي استعيد توازني النفسي والمعنوي وأهدأ قليلا حتى أكون في حالة طبيعية وتركيز جيد كي أكتب كل ما يقول لي. يقول الخضير: " اختطفوني في الليل. وقالوا لي أن الأمر مجرد تحقيق بسيط قد لا يستغرق خمسة عشر دقيقة. لكن تلك الخمسة عشر دقيقة صارت ستة عشر سنة في قبو مظلم لا أعرف فيه هل لا زالت الشمس تطلع على الكون أم لا. ماتت في داخلي كل الأحلام والأمني البشرية. ولم أعد أحلم بلقاء عائلتي أو أحياء بطريقة بشرية عادية مرة أخرى. الشيء الوحيد الذي كان أمنيته الأخيرة قبل أن أموت هو أن أرى الشمس كما هي وأصرخ بأعلى صوتي. حين يشتد علينا التعذيب أكثر كانت أمنية رؤية الشمس والصراخ في الخارج تموت هي الأخرى. وكان كل منا يتصور أن الموت قد يأتي اليوم أو غدا. كل يوم كانت تأتينا الأخبار تنقل إلينا وفاة شخص أو اثنين. وإصابة آخرين بالجنون والوهن. انهم يقولون أن الذين قضوا في مقونة هم حوالي 57 شخصا لكن الكثير منا يشكون في صحة الرقم ويعتبرونه أكبر من ذلك. "

ويواصل الرجل حكيه: " كنا نتعذب ونتمزق من الداخل حين نسمع صراخ السجينات الصحراويات في جناح السجن الآخر. كانت تلك الأصوات تقطعنا من الداخل وتؤثر فينا إلى درجة البكاء والألم. لا أحد يمكن أن يظل عاديا وفي حالة عصبية ونفسية متزنة حين تكون امرأة صحراوية حامل تضرب على بطنها وتصرخ وتتألم. كانوا يفعلون ذلك عمدا حتى يخطموننا نفسيا ويجعلوننا ننهار عصبيا. بعد ان نسمعوننا أصوات النساء تحت التعذيب، يأتون إلينا ليطلبون منا أن نتبرأ من قضيتنا ونرحل إلى المغرب لنعيش هناك ونحصل على الجنسية المغربية . لكننا كنا نرفض."

ويصمت قليلا ثم يستعيد حكيه، لكنه يأتي هذه المرة مشحونا بأثر التعذيب: " أنظر، يقول لي، لقد دخلت السجن شابا، وخرجت منه ورأسي أبيض بالكامل. الذين تركت في المهدي وجدتهم رجالا والبعض منهم تزوج، والذين ولدوا بعدي لم أعرفهم، والذين كنت أعرف تغيرت صورهم وملامحهم. وحتى هم حين أبصروني، كانت عيونهم تعكس شيئا من الشك والريبة. فهم لا يصدقون أن هذا الذي أمامهم هو أنا. ستة عشر سنة وهم يسمعوننا السب والشتم والكلام البذيء يوميا. مع مطلع كل يوم يسمعوننا سيلا من الشتائم التي تخدش الكرامة وتجرح الأعماق والوجدان. تستطيع ان تتلقى العصي والهاويات، لكن مثل ذلك التعذيب لا تمكن مقارنته بالتعذيب النفسي والمعنوي. التعذيب مروع ومخيف وإجرامي. ولا أحد يمكن أن يتصوره. وحتى الذي يحكيه بحس ان المستمع إليه يراوده شك في صحة ما يسمع. إذا لم تدخل زنزانة التعذيب وترى بعينيك ذلك فلن يخطر لك ذلك على بال."

أما أساليب التعذيب الجسدي والنفسي فقد ابتكرت بطريقة شيطانية، فهم يدمجون التعذيب الجسدي والنفسي في آن واحد، ومن أشهر هذه الطرق:

– طريقة الطائرة: يلقون السجين على بطنه فوق الأرض، ويقومون بربط أرجله ويديه، ويدخلون قضيبا حديديا ضخما من اليدين حتى الرجلين ويرفعونه بألة ويربطونه بين عمودين حديديين ويبقى معلقا في الهواء، ثم يضعون فوقه حملا ثقيلًا، ويضربونه بالقضبان الحديدية والبلاستيكية، وأثناء دقائق يفقد السجين الوعي ولا يستيقظ إلا وهو في الزنزانة مبللا بدمائه.

– الطريقة الثانية هي ما يعرف بطريقة الدجاجة المشوية: يجلسون الشخص ويشدون يديه أمام ركبتيه، ويدخلون القضيب الحديدي بين الركبتين والذراعين ويرفعونه إلى أعلى بحيث يكون رأسه في الأسفل، ويبدأون الدوران به ويضربونه على أي موقع منه تصله العصا خاصة الرأس والرجلين.

الطريقة الثالثة هي الصدمات الكهربائية: يجردون السجين من ملابسه، ويربطونه على طاولة من الخشب ثم يشرعون في كيه بأعقاب السجائر، ويوصلون أسلاك الكهرباء بالمناطق الحساسة من الجسم حتى يفقد السجين الإحساس.

وحسب نفس المعتقل السابق، فإن هناك الكثير من الطرق الأخرى مثل طريقة ربط الجسد على طاولة وترك الرأس متدليا إلى الأسفل في الفراغ، ويبدأون صب الماء البارد قطرة قطرة على جبهة السجين حتى ينهار تحكمه في أعصابه، وهذا الصنف من التعذيب لا يطاق.

إن الشهادات كثيرة وموجعة والبعض من هؤلاء الناجين من السجون المغربية يرفض حكيها على النساء والأطفال دون سن الرشد.

مثل آخر هو حالة المعتقل محمد لحبيب الركبيبي أحد سجناء أكدز ومكونة، والذي اختطف يوم 31 مارس 1976م. تقول شهادته المترعة بالمأساة: " كنا أكثر من 300 شخص في مكونة ومعنا 50 امرأة. عند باب أي سجن نذهب

إليه يزعون عن أعيننا الغطاء وينهال الحراس المدججون بالقضبان الحديدية والهراوات الغليظة علينا بالضرب، ولا يدخل إلى الزنزانة إلا من غرق جسمه في الدم، خاصة الرأس والوجه. بين أكدز ومقونة تركنا خلفنا الكثير من الشهداء، ونظرا لصعوبة معرفة الناس وانعدام التواصل بيننا لا نستطيع أن نعرف من مات ومن بقى حيا. أنا مثلا كنت شاهدا على أن المجموعة التالية أسماؤهم التحقوا بالرفيق الأعلى شهداء قضية ووطن:

بناصر احمدناه 90 سنة	الشيخ حمادي
محمد سعيد بييرة	براهيم بوزيد
حمدي بوزيد	الهيبة ميارة
الشيغالي مكاية	المهدي الحسن
البتول سيد علي	فاطمة علي
علوة الطاهر	عبيد السويهلي

مع مرور الوقت أصبحنا جميعا ننتظر الموت. كانوا كلما مات شخص يأتون إلينا ليطلبون منا ترك السياسة وإلا ستكون نهايتنا الموت في السجن مثل نهاية مواطنينا الذين ماتوا. كنا نرفض فيزداد العذاب، وتضعف مقاومة الجسم ويقترب الموت أكثر، خاصة بعد أن تورمت الأطراف وتساقطت الأسنان أو أصبحت تتحرك. لقد ظهرت على أجسادنا لطخات زرقاء، وبدأت جلودنا تتفسح وتتساقط أرضا. لم نعد نستطيع أن ننام في الليل بسبب الألم، وحين لا يستطيع الحراس النوم بسبب أنيننا يسقوننا شرابا منوما لا لكي ننام نحن لكن لينامون هم. قضينا سنوات لا نعرف بين الليل والنهار، بلا أكل إنساني وبلا ملابس، وحين نطلب ما نلبس يرد علينا الحراس باستهزاء: " حين تموتون سنلبسكم ملابس بيضاء جديدة ونظيفة." ويشيرون إلى الغرفة التي توجد فيها الأكفان. كان الحراس أشخاصا لهم آذان وعيون لكن لا قلوب لهم. كنا نعرفهم ونرى وجوههم، وكانوا يقولون لنا: " لن نخفي وجوهنا عنكم لأننا لا نخاف منكم، لأنكم لن تخرجوا من هنا." ويمعنون في تعذيبنا نفسيا فيقولون لنا: " لن يراكم أهلكم أحياء ولا موتى لأنكم إذا تمتم ستدفنون في الليل في مكان مجهول حتى لا يزورك أحد، أو ستذوبون في الحامض."

كل الشهادات تتشابه وتتقاطع في الفظاظ التي تهدف إلى التصفية الجسدية والنفسية لكل أولئك الصحراويين الذين ذهبوا إلى السجون المغربية.

ويطرح سؤال نفسه على الناجين من ظلام وظلم السجن المغربي: " أين ذهب المفقودون؟ لماذا لا يدلون الناس على قبور ذويهم إذا كانوا ماتوا؟ سؤال صعب جدي ولا توجد إجابة دقيقة له ماعدا إجابة واحدة وهي " أنهم جميع ماتوا في السجن ودفنوا في الليل في أماكن مجهولة."

مات الكثير من الصحراويين في السجون المغربية وبطريقة بشعة تجعل الإنسان يطأ رأسه حين يسمعها. في السجن كانوا يُدوبون الناس بالحامض حتى لا يتعبون في حفر قبور لهم. في سنة 2006م أكتشف لجنة "الحقيقة والإنصاف" مقابر جماعية للمعتقلين الذين ماتوا في السجون. كان عدد الذين تم العثور على عظامهم حوالي 54 شخصا منهم 43 صحراويا في

حفر جماعية قرب مقونة وأكذن. الآن قد لا يريد الصحراويون التعويض المادي لذويهم الذين فقدوا نهائياً، لكنهم يريدون معرفة أين هم. فشاب مثلاً حمدي حمادي ابن أحد المفقودين يتألم وهو يقول: " أعطوني مكافأة مقابل فقد والدي، لكنني أريد أولاً أن أعرف أين دفن ولماذا مات.؟ ما هي الجريمة التي ارتكبت.؟

هكذا يتحدث الناجون من السجن بحسرة عن مثل هذه المأساة البشرية التي لم تحدث في أي مكان من العالم ما عدا في معتقلات النازية أو في كمبوديا أثناء حكم بول بوت زعيم الخمير الحمر. البعض يقول " كنا نرى الدود يخرج من أجساد المرضى المرمين في ساحات السجن، لكن لم نكن قادرين على فعل أي شيء بسبب أننا كنا غير قادرين نحن أيضاً على الحركة ولا نجد من نتحدث معه عن هذه القضية. كنا نخشى أن نحصل لنا ما حصل مع رفاقنا في السجن."

(ب) تغيير المشهد الديموغرافي للإقليم:

1- إرهاب الصحراويين بالمستوطنين:

في الثقافة السياسية المغربية فإن السيادة على الصحراء الغربية لن تبسط ما لم يقضى على العنصر الصحراوي بتصفيته جسدياً أو بتغريبه وتذويبه في المجتمع المغربي في الداخل. فمع بداية الغزو سنة 1975م أغرق المغرب المدن الصحراوية بالمستوطنين المغاربة الذين كانت نسبة 40% منهم تعمل لحساب المخابرات المغربية التي أعدت مخططاً في بداية الغزو، بالاتفاق وزارة الداخلية، لتصفية الصحراويين في وطنهم ومدنهم.

في البداية عمدوا إلى تغيير وجه المدن الصحراوية بتغيير أسماء الشوارع والساحات العمومية وكل ما له صلة بالحياة العامة والرموز الصحراوية. في الداخل بدأوا يبتون دعايتهم بالترويج للثقافة المغربية والفلكلور والأغاني. كانوا يطلقون العنان لمكبرات الصوت في الشوارع والمقاهي لتشوش بالموسيقى على الحياة التي يعرفها السكان الأصليون هادئة. وحتى يمعنون في التهديم و يحطمون حياة المواطنين أغرقوهم في وحل كل ماله صلة بالملذات الجسدية والمادية. سمحوا بتداول كل ما هو محرم دولياً مثل الخمر والمهدئات، وحتى المخدرات كانت تباع في واضحة النهار بأثمان زهيدة في شوارع الصحراء الغربية في بداية الاحتلال. من جهة أخرى شجعوا الرذائل بمختلف أنواعها خاصة الدعارة وكل أنواع الانحراف الاجتماعي الذي يأتي على تماسك النفس البشرية ويدمر الجسد..

فبسرعة غير متوقعة وجد الصحراويون، سكان الإقليم الأصليون، أنفسهم يعومون في بحر هائج من المستوطنين المغاربة العدوانيين الباحثين عن الخمر والمخدرات والملذات والذين يتصرفون وفق خطة مدروسة تعتمد على التجسس والمضايقة والتهديد.

إن الذين بعثتهم المخابرات المغربية ووزارة الداخلية كانوا يلبسون ملابس عادية غير رسمية، يقضون أيامهم في المدن يتجولون ويتجسسون في المقاهي والشوارع لجمع المعلومات التي تهمهم.. حين دخلوا الإقليم سكنوا مباشرة في المباني المهجورة أو التي كانت مأهولة بالإسبانيين قبل رحيلهم. كانت لديهم الحرية في كسر باب أية دار يعرفون انها مهجورة، وفي أحيان كثيرة كانوا يخرجون العائلات الصحراوية من سكناتها. لقد اعتمدت خطة هذا الصنف من

المستوطنين المغاربة على تحسس المدن في النهار والبحث التفاصيل، وفي الظلام يقومون بمهمة أخرى سرية قدرة. في الليل يتحولون إلى أشباح مدججة بالسلاح والعصي تدهام المنازل والأحياء السكنية الصحراوية، تهرب الناس وتبعث الذعر في نفوسهم، خاصة العائلات والنساء والأطفال. فإذا خامرهم الشك في شخص ما، خاصة إذا كان رجلا، يتصلون بالعائلات يهددونهم؛ يهددون الأطفال بالاختطاف والصبايا بالاعتصاب وعادة ما يقولون للعائلة قولوا له أن يخرج وإلا سوف لن يعود.

إن ما يعنون بلغتهم التهديدية هو أنهم يشمون في المعنى رائحة الانتماء للبوليزاريو والتعاطف معه أو رائحة كره الاحتلال وعدم حبه.

لقد عانت العائلات الصحراوية من هذا الصنف من رجال المخابرات، وخلق لها مشاكل كثيرة من الرعب والألم والخوف. كانت استراتيجية هذه الفئة من المستوطنين الواعيين بمهمتهم، تعتمد على زرع الخوف في المدن والقرى والبيوت، أما تكتيكها فاعتمد على تبادل الأدوار بين المدن الصحراوية؛ فالذين يسكنون في العيون ينتقلون إلى الداخلة أو السمارة ويحل محلهم مستوطنو بوجدور وهكذا دواليك. إن هؤلاء خطرون، وهم الذين شاركوا بنسبة كبيرة في اعتقال الصحراويين المطلوبين من طرف قوات الاحتلال في سنة 1975م فما بعد. فحين يتلقون الأوامر بالقبض على شخص ما ينضمون إلى قوات الأمن بسرعة، وينقضون على ضحاياهم بطريقة مفاجئة ووحشية وهمجية، فأحيانا يكسرون الأبواب ويهاجمون المطلوبين لديهم من الصحراويين بالهراوات والعصي دون سابق إنذار أو أدنى حديث، وأحيانا أخرى يقومون بعمليات خداع متقنة، فيقولون للشخص المراد اختطافه أنه زاهب للتحقيق لمدة خمس دقائق، لكن تلك المدة تعني في لغتهم سنوات طويلة.

أما الصنف الآخر من المستوطنين المجلوبين للمضايقة فهم الجنود والقوات المساعدة، وهؤلاء قاموا أيضا بدورهم في إرهاب الصحراويين في مدنهم وقراهم. كانت لديهم حرية في دخول المدن والفساد فيها، وقد استعملتهم المملكة في إشاعة الرعب بين السكان الصحراويين لطردهم من منازلهم. كانوا في مرات كثيرة يدخلون المدن في الليل مستغلين الظلام ليسكروا ويبحثون عن النساء وأماكن الرذائل، وهذا التصرف ذاته يرهب الساكنة. وللإمعان في الترهيب، كان هؤلاء يشيعون بين الناس أن القانون لا يحكم عليهم ولا يعاقبهم وهم أحرار في تصرفهم، وهذا في حد ذاته إرهاب معنوي خطير وضغط لا تمكن مقاومته. فمع حلول المساء تغلق الأبواب والنوافذ، ويحدث حظر تلقائي للتجول بسبب الرعب الذي تنشره هذه العناصر المخيفة التي تغزو المدن مع حلول الظلام.. أنهم عناصر مفسدة وعنيفة، فأحيانا يكسرون الأبواب والمحلات ويسرقون ويعتدون ويتشاجرون فيما بينهم أثناء عراهم، وهذه التصرفات تزيد من خوف الناس منهم.

الصنف الثالث من المستوطنين الذين أراد النظام المغربي من خلالهم تغيير المشهد الديموغرافي للإقليم، هم المغاربة العاديين الذين جاءوا إلى المدن بحثا عن الخبز. لقد شارك هؤلاء، طبقا لتوجيهات وزارة الداخلية، في الضغط على ساكنة الإقليم ومضايقتها ومزاحمتها في العمل والسكن، ودافعهم في ذلك الحاجة ومحاوله إيجاد مكان لهم فوق الأرض بعد أن ضاق بهم المغرب. كانت توجيهات وزارة الداخلية المغربية تقول لهم أن هذه أرضهم وهذه فرصتهم وعليهم انتزاع حقهم بأيديهم. ففي وقت سريع استولوا على الأماكن والسكنات الشاغرة والجدران غير المغطاة، وبدأوا يؤسسون حياتهم الجديدة منتهزين الفرصة التي خلفها نزوح الكثير من الصحراويين إلى اللجوء.

مع حلول 1985م، أشارت بعض الإحصائيات أن عدد المستوطنين المغاربة في الصحراء الغربية قد بلغوا 300 ألفا، وهو عدد يضاعف عدد السكان الأصليين أكثر من مرة. من جهة أخرى قدمت المملكة بعض التسهيلات المهمة لهؤلاء كي يغرسون جذورهم أكثر في الإقليم. لقد تم عفوهم من الضرائب والجمركة وكل ما له علاقة بمصاريف الدولة، ورخصوا لهم المواد الأولية وفتحوا لهم كل مجالات الاستثمار هناك..

(2) التهجير: محاولة غرس الطلح في حقول الطماطم

نهاية سنة 1986م عرفت طرح تساؤلات جوهرية حول مدى نجاح عملية تصفية الصحراويين في قعر دارهم بإغراقهم بالمستوطنين. كان الأمر والنهي بيد رجلين اثنين مكلفين بملف الصحراء الغربية هما الحسن الثاني ووزير داخلية إدريس البصري الذي كان يفتخر أنه أغلق رأسه وأعطى المفتاح للملكه. وحسب ما فهم البصري أن سيده الذي يملكه لا زال يحس بالصداع الصحراوي في رأسه ولا ينام إلا قليلا ويفكر كثيرا. فالملك ألمح لوزيره أن سياسته فاشلة في الصحراء الغربية، وعليه البحث عن سياسة أخرى. أقتراح إدريس البصري نقل الصحراويين، خاصة القوة الشابة النابضة بالحياة إلى داخل المغرب عليها تذوب هناك داخل الوسط الشبابي المغربي الذي يتعاطى كل وسائل التخدير كي ينسى الواقع.

مع بداية 1987م بدأ ترحيل دفعات متتالية من الشباب الصحراوي إلى داخل المغرب تحت غطاء تمويهي هو غطاء التعليم والتكوين. وجد الكثير من الشبان الذين كانوا مهمشين أنفسهم فجأة يحصلون على منحة للدراسة في عمق المغرب. مع نهاية 1987م وصل العدد إلى أكثر من 6000 شاب وشابة مهجر، وتم ذرهم في المدن الكبيرة والمدامر، ومنحهم بعض المرتبات وتأجير السكن لهم من طرف الحكومة. في المدن المغربية الكبرى، خاصة الدار البيضاء والرباط، عبت أمامهم الطرق الملتوية، وفتحت أمامهم كل الغرف الحمراء ليدخلوها سالمين. منح الكثير منهم بطاقات يدخل بها مجانا الأماكن التي لا يدخلها إلا الأثرياء، وسمح لهم أيضا الدخول إلى ملاهي الرذائل والفساد وإلى المتنزهات التي يرتادها السياح فقط. ورغم هذه "البحبوحة" إلا أن الهوة كانت عميقة بين الصحراويين والمغاربة، ومع الوقت كانت تزداد عمقا واتساعا. تفتن الصحراويون لعمق المناورة فبدأوا يسلحون أبناءهم، المفروض عليهم التهجير، بسلاح النضال والوطنية. تكتل الشباب الصحراوي المهجر، وبدأ يناضل من داخل المغرب خاصة في الجامعات والمعاهد، وما كادت تمضي سنتان على بداية مخطط التهجير حتى أصبح المهجرون يشكلون خطرا حقيقيا داخل المغرب نفسه. نقلوا الصراع إلى الداخل، وبالضبط إلى الفئات التي لا يريدونها القصر أن تعلم بخلفية الصراع الحقيقية. لقد تركزت استراتيجية الشباب الصحراوي المهجر على استهداف الشباب المغربي لتوعيته بحقيقة القضية مستغلين الغطاء الإعلامي الذي توفره الحرب الدائرة آنذاك بين المغاربة والصحراويين في الميدان.

كان على المملكة أن تتصرف بسرعة قبل أن ينقل الصحراويون فيروس العصيان إلى قلبها فتموت مصابة بشلل اجتماعي خطير. مرة أخرى تدخل حارس القصر الملكي إدريس البصري ليمضي بالشمع الأحمر على مرسوم يقضي بإيقاف تهجير الصحراويين إلى داخل المغرب.

المقال الثاني:

تكريس المقاومة السلمية:

بشائر الربيع الصحراوي

" ثلاث سنوات في الاختفاء القسري السري وعيني مغمضتان ولا أحد يعرف أين أنا! لقد كان عمري 20 سنة عندما اختطفت من منزلي وعُذبت لمدة ثلاثة أسابيع متواصلة. لقد القوني على طاولة وقيدوا ارجلي ويدي ورأسني إلى الخلف، ووضعوا على فمي وعيني وأنفي كمادة مبتلة بماء جافيل. لقد ضربوني على الأرجل بأسلاك الكهرباء ووضعوني على وجهي وأطلقوا علي الكلاب. بعدها أرسلني الذين اختطفوني إلى مخزن قديم للأسلحة يسمى منذ العهد الإسباني تم تحويله إلى سجن سري يحمل اسم البئر. وقضيت هناك عدة شهور على مقعد واحد في أحد الممرات خرساء وعيني معصوبتين 24 ساعة والحارس واقف بجانبني. ساءت حالي الصحية حتى أصبحت عظاما في جلد رقيق. والمشكلة انني أعرف، وبالأسماء، كل الذين كانوا يعذبونني في السجن، وهأنا أراهم كل يوم في الشوارع يبحثون عن ضحايا جدد، ولا أحد يعاقبهم "

مينتو حيدار سجينه سابقه ومدافعة عن حقوق الإنسان.

أ) أسلوب الانتفاضة السلمية

1- بداية خوض كفاح الشوارع السلمي:

رغم كل وسائل التصفية الجسدية والنفسية، وكل وسائل إرهاب الدولة التي قام بها المغرب للقضاء على الشعب الصحراوي إلا ان ذلك في الأخير لم يفلح. ففي السنوات الأولى للاحتلال تكتل الصحراويون، رغم قلتهم، للتحدي لمخطط تصفيتهم المنهج الرهيب، وحين نجحوا في ذلك بدأوا يتحدون ويخرجون إلى الشارع للمطالبة بتقرير مصيرهم. ورغم أن المغرب كان دائما مسرحا للمظاهرات المطالبة بالحقوق الاجتماعية إلا أن الصحراويين ناءوا بأنفسهم عن هذه المطالب، رغم عوزهم، ورفعوا علم بلادهم مطالبين بالحرية والاستقلال فقط.

في الحقيقة كان هناك دائما تناغم بين نضال الصحراويين الموجودين في تماس مع الاحتلال والصحراويين الحاملين للبندقية في الأراضي المحررة. كان كل فريق يعاضد الآخر ويؤازره لتقاسم أدوار تحرير الوطن المحتل. ففي المناطق المحتلة كانت قلوب الصحراويين هناك تنبض فرحا وهي تتابع كل ليلة للحن المميز للنشيد الوطني الصحراوي الذي أصبح عزف جينيريكه معادلا معنويا لحدوث معارك وانتصارات صحراوية في المناطق المحررة. كل الصحراويين كانوا يخلون إلى مكان آمن يحركون المؤشر ويضعون المذياع ملاصقا لآذانهم يستمعون إلى آخر الأخبار وآخر الانتصارات وهم في حالة عظيمة من الانتشاء. كانوا رغم الجدار الفاصل السيئ السمعة، ورغم التباعد، يتواصلون بقلوبهم ووجدانهم، وكان القاطنون مع الاحتلال يشعرون بالحزن أحيانا لإنهم لا يشاركون في معركة التحرير العسكرية التي يلعلع رصاصها كل يوم، وتكتب انتصاراتها في سجل التاريخ بدماء الشهداء. إن عامل الوطنية والغيرة الذي يتغلغل في دماء الصحراويين في المدن المحتلة جعلهم يرفعون علم الانتفاضة وذراع المقاومة وإشارة النصر أو الاستشهاد، رغم انهم كانوا محاصرين ويتعرضون لكل أصناف التصفية.

والواقع انه رغم كل محاولات التصفية والإرهاب لم تسكت الانتفاضة السلمية في المناطق المحتلة المحاصرة. كانت دائما حية وملتهبة بكل الأشكال المتاحة، وكان أبطالها يشحنونها دائما بما تحتاج لتبقى متوهجة مشتعلة لا تخبوء إلا لتنبعث من جديد.

ومع أن المدن الصحراوية كانت تعج بالمستوطنين ورجال الأمن الرسميين والمدسوسين، إلا إن الحراك السياسي الصحراوي الرافض لفرض الأمر الواقع كان دائما حيا في الوجدان الصحراوي المكبوت، وحاضر على الأرض يزعج الاحتلال ويستنزف طاقاته ويخل بأمنه. كان الجزء المحتل من الوطن الصحراوي جبهة حقيقية مفتوحة تقاوم وفق استراتيجية مدروسة وتكتيك متقن. فالصحراويون هناك كانوا دائما في الموعد، وفي الميدان يقارعون الاحتلال ويشاركون في رسم لوحة المقاومة والتحرير بكل ما يستطيعون. كانوا يخلدون الذكريات والأعياد الوطنية، ويتجاوبون مع كل انتصار يعزف لحنه في الأراضي المحررة. فكلما حدثت مناسبة أو حدث وطني تتحول المدن المحتلة إلى غابة من الأعلام الصحراوية واللافتات والشعارات الصارخة برحيل الغزو والمطالبة بتقرير المصير. فمنذ منتصف الثمانينات بدأ التملل الوطني الغاضب يعرف طريقه إلى الشارع الصحراوي المحتل، وبدأ مخاض الانتفاضات السلمية..

2- العلم الأزرق... والعلم الأحمر

نهاية سنة 1987م عرفت حدثا مهما في تاريخ الكفاح السلمي الصحراوي في المدن المحتلة. فغداة زيارة البعثة الأممية التقنية إلى المنطقة المحتلة، في ديسمبر 87م، والتي تفعل ذلك أول مرة منذ 75م، استغل المواطنون الصحراويون الحدث وحضروا للقيام بمظاهرة سلمية أمام البعثة ليطالبوا بحقهم في تقرير المصير، وليشعروا العالم أن وطنهم لا زال واقعا في دائرة الاحتلال المظلة.. ففي مدينة العيون المحتلة خرج الصحراويون في مظاهرة سلمية عارمة لم تشهد لها المدينة مثيلا منذ مظاهرات سنتي 70 و75م. ورغم شراسة القوات المغربية، وشدة الإجراءات الأمنية إلا أن المظاهرة حدثت، ورفعت أعلامها ولافتاتها، وصدق أبطالها بشعاراتهم ومطالبهم الوطنية. ومع أنها كانت مظاهرة

سلمية إلا أن المخزن لم يستطيع كبح نرفزته وهيجان أعصابه فأعمل في المتظاهرين العصا والسيف والمسدس. ففي ساعات قليلة تم اعتقال أعداد كبيرة من المتظاهرين وجرح العشرات بالإضافة إلى قيام حملة ملاحقات مسعورة لم تتوقف إلا بعد أسابيع من الحدث.

كان الفعل الصحراوي ذاك إشارة رمزية للعالم تعني أن الشعب الصحراوي لازال حيا، وأنه حريص على السلم ويفهم منطق العصر ويرجو الكثير من الأمم المتحدة. إن الذي استشره الصحراويون- بعد الحدث- هو أن الأمم المتحدة علمت بما لحق بهم من تنكيل وعمليات اعتقال، لكنها تعاملت مع الوضع كأن الأمر لا يهمها أو لم يقع في مكان تحصره دائرة اختصاصها.

لقد وقع الحدث في وقت بدأت فيه الطبول تدق تبشر بقرب التوصل إلى اتفاق بين أطراف النزاع ترعاه الأمم المتحدة، ويُمكن في الأخير الشعب الصحراوي من تقرير مصيره وفقا للشرعية الدولية.

والحقيقة أن مخطط التسوية الأممي الإفريقي زرع حقولا من زهور الأمل في صدور الصحراويين، وأحيا في نفوسهم حلما سحقته عمليات التصفية النفسية والجسدية التي تعرضوا لها منذ سنة 75م. من جهة ثانية وضعت الأمم المتحدة بين عيني الصحراويين أمنية جميلة حلموا بها عقودا من الزمن وهي أن الاستفتاء - طبقا للمخطط- سينظم في أقصى الحدود في يناير 92م. حدث وقف إطلاق النار، وانتشرت القبعات الزرقاء في سبتمبر 91م وأعيدت البنادق إلى مخازنها، وبدأ الصحراويون يرسمون آمالهم ويعدون الأيام التي تفصلهم عن تحقيق الحلم الجميل. كانوا يريدون أن يلتقوا في وطنهم لتنتهي مأساة شتاتهم وتشريدهم وقهرهم إلى الأبد. والحقيقة أن أغليبتهم صدقت أن الاستفتاء سينظم، وأن علم الدولة الصحراوية سيرفرف فوق العيون المحتلة ونيورك في بضعة أشهر ولأول مرة في التاريخ. أنه شيء يجعل الصحراوي يحلق في الهواء فرحا بعدما قدم الدم والعرق وتحمل المأساة في سبيل تحقيق أمنية الاستقلال. لكن الذي لاحظته الصحراويون من أشياء غير واضحة في تصرف الأمم المتحدة منذ وقف إطلاق النار، جعل الأمل يتجمد في صدورهم. ما أن حدث وقف إطلاق النار حتى طوق المغرب البعثة الأممية، وبدأ يعاملها باحتقار وازدراء، وفرض عليها أن تتصرف وفق أوامره هو لا وفق أوامر المبنى الأزرق في نيويورك. وما زاد الوضع السيئ تفاقما هو تحريف أمين عام الأمم المتحدة ديكيوار لمخطط التسوية بتاريخ 19 ديسمبر 91م، وهو العمل الذي جعل العملية السلمية في الإقليم تقع في دائرة التعجب والاستفهام والشك.

لم ينظم الاستفتاء في جانفي 92م، ولم ترسل الأمم المتحدة أية إشارة يفهم منها أن هناك صرامة موعودة تجعل مؤشر العملية السلمية في الصحراء يسير بوضع طبيعي. فحتى عملية رفع علم الأمم المتحدة الأزرق لم تتم فوق المقر الذي خصص لها في العيون، وكان الموظفون الأمميون كلما رفعوه يأتي المغاربة ويخفضونه، ويعلقون مكانه علمهم ذي النجمة الخضراء. فحتى في أماكن سكنى البعثة الأممية عمد المغاربة إلى إحاطتها بغابات من الأعلام المغربية حتى لا تظهر أية إشارة تدل أن هناك منظمة دولية في المنطقة. كان رجال الأمن المغربية يقومون بنهر أعضاء البعثة الأممية قائلين لهم باستهزاء: " العلم المغربي بطاقة حمراء، وإذا لم تفهموا ستطردون، ولن تنظمو أي استفتاء في الإقليم ولو بعد مائة عام."

ووصلت إلى الصحراويين أخبار سيئة عن الأمم المتحدة؛ البعض من موظفيها باع للمغرب اسطوانات أعطتهم له البوليزاريو عن حسن نية، والبعض الآخر يعمل مع المغرب مباشرة. وحتى مسؤول البعثة كان واقعا تحت سلطة

وتسلط الإدارة المغربية. ففي حين طلبت الأمم المتحدة تسجيل الصحراويين في كنفاريا والخارج، كان أحد المسؤولين المغربية يقول في اجتماع بحضور مسؤول البعثة جينسين: " لن يتم هناك تسجيل للمصوتين في كنفاريا ومدريد. لن يحدث هناك تسجيل حتى لو كان ذلك من عمل جينسين. إذا كنت أنا لا أريد جينسين أن يسجل البدو في الصحراء سوف لن يفعل."

كان يظهر في الأفق أن لون العلم الأممي الأزرق بدأ يفقد لونه، ويكتسب لون آخر لا يوجد في ألوان الطيف..

3- الربيع والعصا...

في التفكير الجمعي الصحراوي، بدأ الربيع يتسرب إلى النفوس حين ظهر ضعف البعثة الدولية في الإقليم. فحتى للاجئين الذين حطموا بيوتهم الطينية الواهنة وباعوا ممتلكاتهم البسيطة شعروا أن الأمم المتحدة خذلتهم، ورأوا السفينة التي تحمل أمنيتهم الجميلة تُحول إلى ميناء آخر.

في غمرة الانبهار بدأت بعض الأسئلة تُطرح أو تطرح نفسها؛ - هل في مقدور الأمم المتحدة أن تفعل شيئا للصحراويين في التسعينات هي التي تخلت عنهم في السبعينات؟ ما الفرق بين الأمم المتحدة آنذاك والآن.؟

أسئلة سرعان ما أجاب عنها الوقت الذي كان يمر بسرعة. بدأ أن الأمم المتحدة غير قادرة على رفع علمها فوق مبنى في العيون فما بالك أن تقدر على تنظيم استفتاء تقرير مصير شعب.؟

جاء شهر أكتوبر 92 دون أن تظهر إشارة واحدة بسيطة تنبئ أن الأمم المتحدة ستقدر على الوفاء بوعددها في إعادة الحق إلى أهله.

ردا على تماطل الأمم المتحدة غير المبرر، وبرودة تعاملها مع القضية الصحراوية الساخنة، تحول خريف سنة 92م إلى ربيع صحراوي. ابتداء من يوم 10 أكتوبر 92م كانت كل المدن الصحراوية على موعد مع مظاهرات الاحتجاج على الدناءة الأممية وعلى الاحتلال الذي بقي يمارس وظائفه الاستعمارية بتلذذ دون إعطاء أدنى اعتبار لمشاعر الصحراويين والقانون والعالم.

ورغم ما حاول المغرب أن يتظاهر به من وداعة منذ أطلق سراح بعض المعتقلين الصحراويين في صيف 91م، إلا إنه عاد إلى طبيعه المشين أثناء قمع انتفاضة 92م. قام بتفريقها ببشاعة وعلى الطريقة المغربية وبواسطة العصا المخزنية التي يعاقب أي مخزني يستعملها حين يظهر أن عصاه غير ملطخة بدماء الضحايا بعد التدخل.

إن قمع انتفاضة 92 حدث على بعد أمتار فقط من تواجد بعثة الأمم المتحدة، وحسب المشاركين في التظاهرة السلمية، فإن هذه البعثة أغلقت أبوابها وأدارت ظهرها للضحايا الذين كانوا يريدون الاستنجاذ بها. فبعد المظاهرة أتجه بعض الجرحى والمعطوبين إلى مقر الأمم المتحدة، لكنها رفضت استقبالهم ورفضت مساءلتهم عن أسباب ما حدث لهم أيضا.

لقد كانت الخسائر فادحة في صفوف المتظاهرين المسلمين؛ الاعتقالات، التعذيب، المتابعات وهناك من أصيب بعاهة أو فقد عينه بفعل الهمجية مثل حالة المناضلة الزهرة بوصولة وآخرين. أما الذين اختفوا بعد التظاهرة فهم كثر، وأشهر حالاتهم هي حالة الشبان الخمسة الذين اعتقلوا في مدينة السمارة بعد مشاركتهم في فعاليات المظاهرة المذكورة، والذين قضاوا تسعة أشهر في الاختفاء القسري بمكان سري لا يعرفون عنه أي شيء. في 29 جويلية 93 قدموا إلى المحكمة

العسكرية الدائمة للقوات المسلحة الملكية في الرباط، وحكمت عليهم ب20 سنة سجنا نافذة يقضونها في أكادير، ولولا تدخل المنظمات الدولية لقضى هؤلاء مدة الحبس مثلما أرادت المحكمة.

ورغم أن الصحراء، منذ بداية الاحتلال، كانت دائما ركزا للتناكف بين العصا المغربية القاسية والراية الصحراوية الملونة، إلا أن انتفاضة 92م شكلت بصراحة انفتاحا جديدا لمرحلة نوعية من الكفاح الصحراوي السلمي الطويل الأمد. فهي جاءت في وقت تواجدت فيه الأمم المتحدة في الإقليم كإشارة لتسليم العالم بحق الشعب الصحراوي، ثم أن العالم آنذاك كان قد قال وداعا للسلح وبدأ ينادي بالكفاح السلمي للمطالبة بالحقوق. الشيء الآخر المهم في تلك الانتفاضة أنها لم تكن سحابة صيف، بل كانت البداية لسلسل طويل من الكفاح السلمي المتعدد الأشكال والأساليب. فبعدها لم تتوقف الانتفاضة في الوطن المحتل يوما واحدا، بل أصبح فعلها الاعتيادي متنفسا للصحراويين وشفاء لغيليلهم بعد تخلي الأمم المتحدة عنهم واكتفائها بالقيام بدور حراسة وضع الاحتلال.

إن الانتفاضة السلمية الصحراوية هي تكييف سريع للصحراويين مع المناخ العالمي الذي ساد آنذاك، وبدأ ينادي بالديمقراطية وحقوق الإنسان ويرفض الحرب. أن لجوء المواطن الصحراوي الغاضب إليها راجع إلى أن المبادئ الدولية وقوانين الإنسان تنطبق كلها على قضيته خاصة مبدأ تقرير المصير الذي يعتبر أهم حق في القانون العالمي.

في السنوات التي تلت تلك الانتفاضة فرض العلم الصحراوي وجوده فوق مباني المدن المحتلة، وأصبح الناس أكثر جرأة للخروج إلى الشارع للتعبير عن مطالبتهم بحقهم في الاستقلال. فمن خلال تحليلنا الشخصي لانتفاضة 92م، نعتقد أنها بعثت رسالة واضحة وغير مشفرة إلى العالم وإلى الصحراويين ومفادها أن المغرب، رغم أن العالم من حوله يتغير جغرافياً وتاريخياً ويقفز إلى الأمام، فإنه هو لا زال شاهرا عصاه في وجه الديمقراطية وحقوق الإنسان، ويتجاهل القوانين الدولية التي أصبحت أناشيد وأغاني حتى في غابات الأمازون..

4- الحل هو الإمعان في الانتفاضة السلمية :

إن تعامل بعثة الأمم المتحدة (مينورسو) بسلبية، وبعين مغمضة مع الفظاظة والفظاعة المغربية ضد الصحراويين في المدن المحتلة، خاصة بعد انتفاضة 92م بدد الوهم وأزال المساحيق الزرقاء التي كانت تحجب الوجه الحقيقي للأمم المتحدة. فهي منظمة لا يوجد منها إلا الاسم والهالة التي تسبق تواجدها إلى مكان ما، أما ما عدا ذلك فهي مظلة تستعملها الدول الفاعلة فيها لتصفية حساباتها مع القضايا التي لا تعجبها.

إن تقاعس الأمم المتحدة، التي كان من المفروض أن تتحكم في الإقليم منذ تواجدها فيه، وحقد العصا المغربية، جعل الصحراويين يعتمدون على أنفسهم وبمعنون في الانتفاضة السلمية الشرعية حتى الحصول على الحق.

خرج كل صحراويّ المدن المحتلة، مدعومين معنويا بصحراويّ المناطق المحررة ومخيمات الصمود، إلى الشارع عفويا لخوض معركة جديدة بأدوات جديدة وفي زمن جديد لتحقيق حلمهم. فبالنسبة لهؤلاء، وقف إطلاق النار لا معنى له، وهو ليس إلا توقف مؤقت لإحدى المعارك التي لا تعني بالضرورة توقف الكفاح أو نهايته.

نهاية شهر غشت 1994 م بدأت الأمم المتحدة محاولة تحديد هوية السكان الصحراويين في المناطق المحتلة، لكن تلك العملية كانت حربا نفسية بشعة ضد الصحراويين. كانوا يحسون بالغبن، وظنوا انه بوجود الأمم المتحدة فوق أرضهم فإن ذلك سيكون كافيا ليمسح نفوسهم من الحيف الذي لحق بهم. ورغم أنه من المعقول أن تتولى المنظمة الدولية عملية تسجيل الصحراويين وفتح مكاتب لهم قبل تحديد هويتهم، إلا أن العكس هو الذي حدث. تولت الإدارة المغربية الاستعمارية العملية وقامت بها بعنصرية لا مثيل لها. ففي حين كانت هذه الإدارة تجلب المستوطنين من أقصى المغرب كي يشاركوا في العملية، كانت تقصي الصحراويين الذين جاءت الأمم المتحدة من أجلهم. كان الصحراويون يتقدمون إلى مكاتب التسجيل بخوف كبير تحت مراقبة الشرطة وتهديدها. فحين يحاول أحدهم التقدم ليسجل نفسه تحقق معه عناصر تابعة للأمن، وإذا كانت لديه سوابق في التظاهر مثلا يتم وضع سطر أحمر تحت اسمه أو يقال له انه لا يتوفر على مقاييس تحديد الهوية. لما بدأت عملية تحديد الهوية اكتشف الصحراويون أن الكثير منهم حُذف من اللوائح، والذين حضروا منهم كانت كاميرات رجال مغاربة تأخذ لهم صورا أثناء العملية. حين تحروا الأمر بعد ذلك اكتشفوا أن هؤلاء المصورون هم رجال أمن مغاربة سمحت لهم اللجنة بالدخول، في حين منعت الصحافة من فعل ذلك. ولا تنتهي العملية المرعبة عند هذا الحد، بل كانت السلطات المغربية تحشر الصحراويين في حافلات صغيرة وتنتزع منهم الوصل الذي سلمته لهم الأمم المتحدة حتى لا يبقى عندهم دليل يؤكد حضورهم..

وحتى لا يقدمون شكاوي أو طعون، كان ممنوع عليهم التحدث مع أعضاء البعثة أو الاقتراب من مقرها، وإذا شوهد أحد ما يريد الاتصال بها أو حاول مكالمتها يتم اعتقاله. كانت أيضا الهواتف ومراقبة والطرق مراقبة، واقرب نقطة يمكن أن يصل إليها صحراوي من مقر البعثة هي حوالي 300م.

شهر ماي 95م التهب الشارع الصحراوي أكثر، وشملت المظاهرات السلمية كل المدن الصحراوية المحاصرة فارتكبت العصا المغربية كالعادة أعمالا شنيعة في حق المتظاهرين العزل. ومرة أخرى وقع كل شيء أمام أعين البعثة الأممية وعلى مسمع منها. وحتى عمليات التعذيب والتنكيل تم العلم بها من طرف مجلس الأمن، لكن حسب تقرير منظمة العفو الدولية الذي صدر 1996م، فإن الأمم المتحدة: "كانت شاهدا سلبيا صامتا على خروق فظيعة لحقوق الإنسان في الصحراء الغربية (...). وحفظة السلام كانوا مجرد متفرجين في مايو 95م ويونيو 95م عندما قمعت مظاهرات حاشدة سلمية في المناطق المحتلة من الصحراء الغربية."

يونيو 95م خلد الصحراويون في المدن المحتلة الحدث التاريخي الوطني - انتفاضة الزملة - الموافق ليوم 17 بمظاهرات عارمة خلفت وراءها الضحايا والمعتقلين، وحدثت محاكمات جائرة للمعتقلين المدافعين عن حقوق الإنسان،

خاصة محاكمة المجموعة التي اعتقلت في العيون. لم يعجب ما حدث جبهة البوليزاريو فاحتجت أمام الأمم المتحدة، وقررت إيقاف عملية تحديد الهوية إلى غاية اتضاح اللون الأبيض من الأسود في مهمة المينورسو.

على المستوى السياسي سببت الانتفاضة صداعا حقيقيا للنظام المغربي فعاد إلى أسلوبه المتوحش في القمع والسجون. ولم تقتصر الهمجية المغربية على معاملة الصحراويين المتظاهرين بفظاظة، ولكن عمد النظام من جديد إلى فرض الحصار على المدن الصحراوية للتغطية على الانتفاضة المتواصلة، فأصبح لا يدخل إليها أحد ولا يخرج منها أحد، خاصة الوفود الدولية الحقوقية والإعلامية التي كانت تريد الوقوف على حقيقة الوضع. ففي ظرف قصير قُطع الهواء عن الصحراء الغربية، وأصبحت تعيش في كوكب آخر خارج الكرة الأرضية، وممنوعة من الاتصال بالعالم الخارجي. ومبالغة في إخفاء الوضع أكثر في الظلام إعلاميا، كانت القوات المخزنية تقوم بتفتيش أعضاء بعثة الأمم المتحدة الذين يذهبون لقضاء عطلم خوفا من أن ينقلوا للعالم الخارجي صورا ناطقة عن ما يجري في الإقليم المحتل. كانوا يقومون باحتجاز الكاميرات وأشرطة الفيديو المملوكة من طرف أعضاء البعثة، وكانوا يمنعون عليهم التصوير وحمل وسائله في الشوارع حين يتجولون.

ولم يقتصر التعامل المهين للمملكة على أعضاء البعثة الأممية فقط، بل شمل أيضا الأجانب الراغبين في زيارة المنطقة خاصة الصحافة والبرلمانيين والحقوقيين. كان الأسلوب المنتهج لابتزازهم يتمثل في منحهم تأشيرات من السفارات المغربية فيشترون التذاكر ذهابا وإيابا ويسافرون، لكن حين يصلون إلى مطارات الصحراء الغربية يستقبلهم رجال الأمن المغربية فيفحصون أسماءهم ويخبرونهم انه غير مرغوب فيهم وعليهم العودة مباشرة إلى بلادهم ومن المطار ذاته وعلى نفس الطائرة.

مثل هذا الوضع زاد من حراك الصحراويين السلمي في داخل الإقليم المحتل لتمزيق الغلاف الذي يحيطهم. كان العناد والإمعان في الانتفاضة هو الحل المتبقي بين أيديهم بعد أن وجدوا أنفسهم أسرى لوضع ما كانوا يتصورون أنه سيكون بمثل هذه السلبية والضبابية.

ب) انتفاضة سنة 1999م

1 - مشعل العمل الحقوقي في يد والعلم الصحراوي في يد.

في الداخل كان ستار الظلام الذي يحيط مجريات الانتفاضة كثيفا جدا، وكان لا مناص من تكسيهه. في الميدان كان تناغم فعل الانتفاضة مع عمل تحديد الهوية المتعثر يربك الاحتلال ويخلط أوراقه ويفشل حساباته.

كان شهرا سبتمبر - أكتوبر 99م مهمين في تاريخ الكفاح السلمي الصحراوي. عرفا بداية مخاض العمل الحقوقي الصحراوي المنظم، وفيهما رسمت الانتفاضة السلمية مسارها المستقبلي أيضا. ففي هذين الشهرين قرر الصحراويون في المدن المحتلة، خاصة العيون، كسر الحصار بالتظاهر والاحتجاج وإعلان انتفاضة مفتوحة حتى النهاية.

ففي العيون أحتشد الشباب الصحراوي في إحدى الساحات الكبرى وبنى خياما كبيرة، وبدأ يلوح بالأعلام ويردد الشعارات الصحراوية. كانت المظاهرة تكبر وتتضاعف مع الوقت حتى فجرت الغضب في كل النفوس وكل الشوارع.

كان الحدث أشبه بالمظاهرات التي حدثت بعد ذلك في لبنان واوكرانيا لإسقاط الحكومات. شارك الصحراويون كلهم في الحدث كأنما كانوا ينتظرون حدوثه بحرقه وغضب.. تقدم المظاهرة الشباب والناجون من السجون المغربية، وأبطال الانتفاضات السابقة الذين تحولوا إلى حقوقيين عالميين يدافعون عن حقوق شعب كله في التحرر من الاحتلال. دام الاعتصام اثنا عشر يوما، وأخذ من ساحة قريبة من فندق نقجير قرب أماكن تواجد البعثة الأممية مكانا له. تمت محاصرة المكان جيدا في انتظار أن يتعب المتظاهرون وينصرفوا، لكنهم بقوا في أماكنهم. حين رأت قوات الأمن المغربية توافد الكثير من المستوطنين المغاربة المخدوعين وانضمامهم للمظاهرة الصحراوية، نظمت هجوما هجريا شارك فيه العسكر والقوات الخاصة وقوات أمنية أخرى تلبس الملابس المدنية مدججة بالعصي المعدنية والهاويات. ورغم أن المتظاهرين رفضوا الدخول في صدام مادي مع قوات التدخل، إلا أن الأوامر الموجهة من طرف محمد السادس كانت قاسية، وكانت تقول انه يجب القضاء على التظاهرة الصحراوية حتى لا تنتقل العدوى إلى المدن المغربية التي ترتعد هي الأخرى فوق بركان العصبان. استعمل الرصاص المطاطي والغازات المسيلة للدموع، ودهست السيارات والدراجات النارية المتظاهرين، وتم شحن الذين رفضوا التفرق في شاحنات ورمي الكثير منهم مئات الكيلومترات بعيدا عن العيون في الصحراء. امتلأت السجون المعروفة والسرية بالمعتقلين، فزاد التوتر أكثر، وأصبحت الصحراء كلها وطننا منتفضا.

في الأيام الموالية اشتعلت الانتفاضة ثانية وبأكثر مشاركة، وحمل المتظاهرون هذه المرة أعلاما صحراوية كبيرة، بعضها علق على أسلاك الكهرباء والبعض الآخر رمي في سماء المدينة بواسطة بالونات أطفال. هذه المرة شارك فيها، بالإضافة إلى الصحراويين، الكثير من المستوطنين المغاربة الذين أتت بهم الحكومة كي يشاركوا في الاستفتاء. منذ ذلك التاريخ صارت الصحراء الغربية مسرحا مفتوحا للانتفاضة المطالبة بالاستقلال، وحملت شعار " لا بديل عن تقرير المصير". كل الشعب الصحراوي شارك فيها وبدون استثناء، فهي انتفاضة مفتوحة من أجل الحصول على حق مغتصب سبب اغتصابه ضياع الكثير من الحقوق المدنية الأخرى والتي لا يمكن استرجاعها ما لم يسترجع هو.

وكما أريد لها، كانت انتفاضة 99م إعلانا عن تأسيس وتنظيم العمل الحقوقي الصحراوي وتفعيله. فمشاركة المعتقلين والمفقودين الصحراويين السابقين على رأس تلك الانتفاضة، حاملين جروحهم كشعارات، ومطالبتهم بفتح ملف مواطنيهم المفقودين جعل أمثالهم المغاربة يدخلون معركة مع المملكة لتتبنى مطالبهم الحقوية. ففي نوفمبر 99م، بعيد المظاهرة الصحراوية مباشرة، قامت وزارة الداخلية بتنشيط منتدى الحقيقة والإنصاف الذي كان مجمدا، والذي يبحث في تفاصيل المأساة التي سببها النظام المغربي لشعبه إبان سنوات الجمر والرصاص وتازامارت.

من جهة أخرى حدث ضغط دولي مجهد على الملك المغربي كي يحقق في انتفاضة العيون، فشكل يوم 6 أكتوبر 99م لجنة للتحقيق في تلك الانتفاضة وهي أول مرة تفعل فيها ملك عاصي ذلك.

ومن قطاف تلك الانتفاضة أيضا حمل المناضلين الصحراويين مشعل العمل الحقوقي لتوسيع دائرة نشاطاتهم بطريقة قانونية حضارية مضمونة. لقد تأكد لهم أن السياج الذي يحيط بقضيتهم والفظاظة التي تخلق آلام شعبهم لن يحبط من غلوائها سوى العمل الحقوقي المنظم، والخطاب الصادق والواقعي الموجه إلى الرأي العام. قام هؤلاء بتأسيس منظمات وجمعيات حقوقية لتوحيد جهودهم وكلمتهم حتى يتمكنوا من مخاطبة المنظمات الدولية بصوت واحد متحد. فمن قبل كانوا موجودين ونشطين،

خاصة بعد إطلاق سراح الكثير منهم من مكونة وأكذب، لكن ظلوا يغردون فرادى فكانت كلمتهم تضيق في صخب الدعاية المغربية المعكرة لأصواتهم والمشوشة على فعلهم.

حين أحست السلطات المغربية بالحراك الحقوقي الصحراوي المتناغم مع الانتفاضة أفلتت كل الأبواب والملفات في وجه كل صحراوي يريد أن يؤسس جمعية أو اتحادا أو فرعا تشتم فيه رائحة الدفاع عن حقوق الصحراويين، أو يشار إليه انه يريد أن يتحدث بلغة معاكسة للغة القصر في ما يخص قضية الصحراء الغربية.

في يوم 6 ديسمبر 1999م قامت قوات الأمن المغربية بعملية بوليسية ضد من اعتبرتهم قيادة البوليزاريو في المدن المحتلة؛ تم اختطاف ثلاثة شبان في نفس اليوم على الطريقة "المافيوية" البحتة التي لا تحدث إلا في أفلام الخيال وفي المغرب. أختطف كل الشيخ خية وبراهيم لغزال والعربي مسعود بطريقة مرعبة وذهبوا إلى مكان مجهول لم يعرف أحد من ذويهم عنه أي شيء، ولم يظهروا إلا بعد أسبوع من الاختفاء القسري..

ورغم المنع والحظر والمتابعة المكثفة إلا أن الحقوقيين الصحراويون أسسوا الجمعيات التي يريدون، والمنتديات التي تنسجم طبيعة توجهها مع ما يطمح إليه الشعب الصحراوي المظلوم. إن الإصرار على تأسيس مثل هذه الجمعيات الحقوقية، التي لا تريد المملكة الترخيص لها، يدخل في إطار تنويع أساليب الانتفاضة السلمية الصحراوية. فتأسيس منتديات وجمعيات حقوقية صحراوية، وبداية ممارستها لأنشطتها، دون سابق موافقة رسمية من سلطات الاحتلال، يدفع هذا الأخير إلى الدخول معها في صدام وهذا في حد ذاته عامل مهم يحفز الانتفاضة الميدانية ويؤجج ثورتها. فبطريقة ذكية أسس الحقوقيون الصحراويون منتدى الحقيقة والإنصاف فرع الصحراء الغربية، وهو جمعية متخصصة في الدفاع عن الحقوق المدنية في المدن المحتلة، خاصة كشف مصير المفقودين السياسيين الصحراويين في السجون المغربية. ورغم أن المنتدى رفض اعتماده في البداية إلا أن الضغط الحقوقي الصحراوي والدولي أرغما المملكة على اعتماده على مضمض. لكن الاعتراف به لم يدم طويلا، فحين قام المنتدى المذكور باللقاء مع وفد الاتحاد الأوروبي في العيون بتاريخ 12 ديسمبر 2002م، وجد النظام الملكي الحجة لسحب اعتماده وتشميع ملفه. التجمع الثاني الحقوقي المهم الذي ظهر في الصحراء الغربية المحتلة، هو الجمعية الصحراوية لضحايا الانتهاكات الجسيمة المرتكبة من طرف المملكة المغربية بعد الاحتلال، وهي جمعية تأسست 7 مايو 2005م، في خضم الأيام الحامية الوطيس للانتفاضة، تحت توجه " لا إنصاف بدون حقيقة ولا مصالحة بدون حل شامل". رفضت الإدارة المغربية الترخيص لها مرارا حتى فعلت ذلك مضطرة سنة 2006م. بالإضافة إلى هاتين الجمعيتين هناك الجمعية المغربية لحقوق الإنسان فرع الصحراء الغربية التي أعيتهها وزارة الداخلية بالماطلات البيروقراطية المتعمدة بحجة دفاعها عن حقوق مواطنين يطالبون بالاستقلال.

ومع انتشار الفكر الحقوقي في الصحراء الغربية تأسس المزيد من التجمعات الحقوقية التي حرمت بتعسف من حق الترخيص مثل لجنة التنسيق الحقوقي، ولجنة عائلات المفقودين الصحراويين. وبرغم هذا الإكراه، واصلت هذه الفعاليات الحقوقية عملها تدافع عن التظلمات الواقعة على الصحراويين من طرف المملكة معتمدة على المؤازرة التي تلقاها من المنظمات الحقوقية الدولية مثل مرصد حقوق الإنسان ومنظمة العفو الدولية، وعلى الغطاء النظري الذي يوفره لها القانون الدولي خاصة المطالبة بحق في تقرير المصير.

ومع الوقت بدأ المناخ الحقوقي يسود المنطقة كلها، وتواصل تكوين الجمعيات الصحراوية التي كثفت من نشاطها الجمعي وتحيدها للقوة المحتلة المديرية للإقليم. إن الاعتراف العالمي للحقوقيين الصحراويين بشرعية عملهم ونضالهم، جعلهم يؤسسون جمعيات أخرى مثل جمعية الدفاع عن حق تقرير المصير التي أسسها كبير الحقوقيين الصحراويين المناضل سيدي محمد ددش. فلولا الاستماتة في الدفاع عن هذا الحق ما كان النظام المغربي سمح لمؤسس هذه الجمعية أن يبقى طليقا يتجول في الشوارع. إن ذكر كلمة تقرير المصير كانت تلقي بقائلها في السجن أو إلى الحتف، أما الآن فقد فرض الصحراويون بنضالهم أن تكون هناك جمعيات تحمل مثل هذا الإسم.

وبالإضافة إلى رفض الترخيص للجمعيات فقد تم تضييق مجال تحرك النشطاء الحقوقيين من طرف النظام المخزني وتصنيفهم في خانة المعادين للمملكة المغربية. فحسب تقرير المفوضية السامية لحقوق الإنسان التابع للأمم المتحدة والصادر في سنة 2006م فإن "العديد من النشطاء الحقوقيين الصحراويين كانوا عرضة للاستهداف. والبعض منهم تمت محاكمته لأنهم عبروا علانية عن وجهات نظرهم التي لا تتماشى مع وجهة النظر الرسمية المغربية بخصوص قضية الصحراء الغربية. بل تدافع عن تقرير المصير". وبالرغم من هذه الاكراهات التي تعرض لها الحقوقيون في الإقليم إلا أن عملهم ونشاطهم أعطى للانتفاضة بعدا إعلاميا وجغرافيا، وكان سندا حقيقيا لها، فهم مدافعون عن حقوق أبناء جلدتهم وعن حقوقهم هم.

سنة 2001م كانت متفردة وحاسمة في العمل الحقوقي الصحراوي. فبفضل تضافر الجهود تم تطوير العمل وتوحيد الإستراتيجية، وبدأ المواطنون يتلقون أساليب العمل الحقوقي السياسي الذي يطالب بالحق الشرعي. كان أكبر عمل موحد قام به الحقوقيون المعتقلون في السجن لكحل بالعيون والذين عددهم 131، هو شروعهم جماعيا في خوض عملية إضراب موحد عن الطعام ابتداء من 24 ديسمبر 2001م للمطالبة بحقوقهم. فما أن حل شهر يناير من سنة 2002م حتى شاع هذا العمل الحقوقي النضالي، وسلطت عليه الأضواء، وبدأ العالم يتحدث عن سجن أسمه "الحبس لكحل" لا يبتعد كثيرا عن سجن أبو غريب من حيث البشاعة. فهذا السجن القديم الذي تركه الاستعمار الإسباني يتكون من 7 غرف ومرحاضين، وطاقته حسب قانون السجن لا تتعدى في أقصى حالات الاكتظاظ 70 معتقلا، لكن الأخبار الواردة منه تشير إلى وجود 660 سجيناً داخل هذه الغرف النتنة. الحالة بالسجن المذكور دفعت الكثير من المنظمات إلى طلب زيارته، لكن المغرب رفض، وظل يصبر أن السجن يتوفر على المقاييس الدولية. لكن المفاجأة ما لبثت أن بانث مثل الشمس حين تمكن بعض السجناء من التقاط صور ملونة سرية من هذا السجن سنة 2006م، وبثها على الشبكة الدولية الواسعة. الصور لا يمكن لذي إحساس وقلب أن ينظر إليها دون أن يتقطع من الداخل ويصاب بالغثيان. في الصور يظهر السجناء مكدسون في المراحيض والممرات والسراريب مثل السردين، وحولهم تتناثر فضلات الأوساخ والصرابير.

إن دخول مجموعة 131 في الإضراب زاد من حراك الانتفاضة وتلملم الشارع الصحراوي، وزاد من ضغط المنظمات الدولية المدافعة عن حقوق الإنسان. بدأت أمهات السجناء يتجمعن أمام السجن ويضغطن على السلطات الاستعمارية، وما لبث الاعتصام أن تحول إلى مظاهرات وعصيان. في الشارع انتقل ربيع الانتفاضة الصحراوية إلى كل مكان يتواجد فيه صحراوي، وأصبحت الصحراء المحتلة بؤرة كفاح سلمي حقوقي حقيقي.

أ) نماذج لنجاح العمل الحقوقي الصحراوي

1- سيدي محمد ددش يخرج إلى الشمس...

ورغم أن المدة التي عرفت مخاض العمل الحقوقي الصحراوي كانت قصيرة، إلا أن إصرار الفعل على الحدود وشرعية المطالب واعتراف العالم بها، خاصة المنظمات الحقوقية الدولية، جعلت الصحراويين يبدؤون في قطف ثمارها بسرعة. أول نتائج النضال الحقوقي الصحراوي كانت الخروج المظفر لسيدي محمد ددش يوم 7 نوفمبر 2001م من سجن لقنيطرة الذي قضى فيه حوالي 25 سنة. إن طول تواجده تحت الأرض يعذب من أجل مقايضة قضيته بإطلاق سراحه جعلته وطنيا رمزا في عيون الصحراويين وعيون العالم. لقد تحول إلى رجل خطير في عيون الاحتلال لأن كل الذين ألقى عليهم القبض في الانتفاضة يسألهم البوليس، أثناء الاستنطاق، عن علاقتهم بسيدي محمد ددش، وما هي تعليماته لهم؟

كان شابا حين قبض عليه جريحا بعد معركة في امكالا يوم 2 فبراير سنة 76م. تمت معاقبته بقضاء سنتين لا يرى فيهما الشمس ولا الضوء.. في يوم 10 غشت 79م حاول الالتحاق بشعبه في المخيمات، لكنه وقع في الأسر مرة أخرى وجريحا. انقلبت السيارة التي كان يقود فاستشهد رفيقه وبقي هو حيا جريحا. كانوا ثلاثة عشر، نجا منهم إحدى عشر، التحقوا برفاقهم في جبهات القتال الساخنة آنذاك في نفس اليوم. حكم عليه بالإعدام سنة 80م من طرف محكمة عسكرية، بعد ذلك حُكم عليه بالمؤبد سنة 94م. بدأ يحاول الاتصال بالعالم الخارجي وإرسال رسائل مشفرة إلى المنظمات الحقوقية لشرح وضعه الحقوقي. في سنة 97م نجح مسعاه فتم اعتباره، من طرف منظمة العفو الدولية، سجين رأي سياسي صحراوي. تناقلت وسائل الإعلام اسمه باعتباره أقدم سجين سياسي في العالم، ونتيجة لذلك الضغط بدأ يستقبل الزيارات. يقول سيدي محمد ددش: "بدأت استقبل الزيارات لكن الذي كان يحزنني هو أن أمي لم تكن بين الزوار. أخرجت صوتا سمعت صوتها كان سنة 75م وهي الآن هرمة. إنني لم أبك في حياتي. لكن حين سمعت صوت أمي في البداية، أحسست إنني لم أعد أطيق حبس الدموع. صارت كثيرا لكنني أجهشت بالبكاء في النهاية."

وحيث يهتم سيدي محمد ددش باستحضار الذكريات المخيفة عن سؤ المعاملة في السجون المغربية يسعى إلى كبح انفعالاته: "لقد تم وضعي خلال مدة سجن في زنزانة معزولة، وتعرضت إلى أسوأ صور التعذيب النفسي والجسدي. كنت الجأ إلى إضرابات مفتوحة عن الطعام من أجل الحصول على حبة أسبيرين في بعض الأحيان أو من أجل أن ينظفوا الزنزانة."

في السجن كانوا يجعلون الحال تسؤ إلى أقصى الحدود، ثم يبعثون له من يطلب منه أن يتخلى عن قضيته مقابل إطلاق سراحه، لكنه كان يرفض. وفي الأخير يقول سيدي محمد ددش: "قدم لي المجلس الاستشاري المغربي لحقوق الإنسان اقتراحا يطلب مني فيه أن أكتب التماسا للعفو إلى الملك ولكنني رفضت رفضا قاطعا."

كان السجن قاسيا على سيدي محمد ددش، لكنه هو تسليح بقضية وطنية شريفة حتى تغلب على السجن. قرر أن يبدأ معركة عصيان مع سلطات الاحتلال وهو في ظلمة زنزانتة الضيقة القبيحة التي لا تتعدى ثلاثة أمتار مربعة، والتي لا يوجد بها من النوافذ سوى ثقبان ليبقى يتنفس منهما، لكن لا لكي يرى الشمس. كان أقرب باب له هو باب غرفة كلاب الحراسة الهائجة دائما والتي يعطونها أقرصا منشطة حتى تقضي الليل كله تنبوح كي لا ينام أحد. بدأ إضرابا عن الطعام يوم 23 غشت 2001م. الخبر هز الساحة الوطنية الصحراوية في المدن المحتلة والمناطق المحررة وانتقل إلى العالم خاصة المنظمات الدولية الحقوقية. في اليوم الموالي لإعلان الإضراب تجمع الصحراويون في مدينة العيون بأعداد كبيرة معلنين تضامنهم معه. وصلت إلى

التجمع عديد الرسائل من المنظمات الدولية للتعبير عن التضامن الإنساني والتعاطف. في التجمع أُعلن عن بداية الحملة الدولية من أجل إطلاق سراح سجين الرأي السياسي سيدي محمد ددش. ورغم الكلمات المؤثرة التي ألقيت في التجمع من طرف معتقلين سابقين وسجناء رأي، إلا أن الجميع بكى حين تم ربط صوت سيدي محمد ددش من زنزانته بالتلفون الموصل مع مكبر صوت. كانت الرسالة الصوتية مؤثرة وعميقة. قال سيدي محمد ددش: "صباح الخير أصدقائي. أقول لكم إنني بخير. ففي مقر قوات الدرك الملكي بالعيون سنة 79م، وقبل مثولي غير العادل أمام المحكمة العسكرية بالرباط تم تعذيبني بوحشية أثناء الاستجواب. الآن أمضيت أكثر من 22 سنة في السجن المركزي بالقنيطرة. وهذا رغم الحملات المؤيدة لإطلاق سراحي والمنظمة من طرف المدافعين عن حقوق الإنسان. والتي من بينها المكتب الأوروبي من أجل احترام حقوق الإنسان في الصحراء الغربية. وكذا من طرف منظمة العفو الدولية. إن موقف المملكة المغربية التي تدعي أنها تحترم حقوق الإنسان لا زال لم يتغير. لقد اختارت أن لا تطلق سراحي، لهذا قررت الشروع في إضراب عن الطعام لمدة 24 ساعة كل أسبوع بداية من 23 غشت 2001م إلى آخر أسبوع من شهر سبتمبر 2001م. وحين تمر هذه الفترة فإنني أخطط للشروع في أعمال أخرى نضالية حتى أحتتم إطلاق سراحي بدون قيود أو شروط. في النهاية أحي كل الصحراويين وكل المدافعين عن حقوق الإنسان في العالم."

سجن لقنيطرة 24 غشت 2001م السادسة ونصف مساء

وحين انتهت المكالمات هتفت الجموع بحياة الدولة الصحراوية ورفعت الأعلام وبدأت انتفاضة جديدة. انه بطل حقيقي. حين خرج مثل الأبطال كانت أول ملاحظاته هي: "كثرة المستوطنين حتى أن الصحراويين صاروا قلة في وطنهم." من جهة أخرى هو يعتبر: "أن كل المغاربة الذين تشاهدتهم في الشارع هم لا يعملون هنا إلا عملا واحدا هو محاولة إرهاب وتصفية الشعب الصحراوي، وحتى الذين لا يلبسون ملابس رسمية هم رجال أمن أصلا." كان من بين أمنيته أن يرى أمه، ويلتقي شعبه في اللجوء خاصة رفاق السلاح. لم ينتظر كثيرا، ففي سنة 2002م جاءته بشري حصوله على جائزة "رافتو" النرويجية، وعليه أن يستلمها شخصيا. رفضت الملكة إعطائه جواز سفر حتى يستلم جائزته، لكن الضغط الدولي مكنه من تحقيق أمنيته بقاء والدته في النرويج. بقيت الأمنية الثانية، وهي أن يلتقي شعبه في مخيمات اللاجئين خاصة رفاق السلاح مثلما يحلو له أن يقول. حين نظمت الأمم المتحدة برنامج الزيارات بين العائلات الصحراوية المقسمة على جانبي الجدار سجل سيدي محمد ددش اسمه، لكن السلطات المغربية استهزأت بطلبه. استهزأ هو أيضا برفض السلطات المغربية، وبقي مصرا على طلبه. هو يعرف أن الضغط على المغرب سيجعله يذهب لرؤية شعبه في يوم ما مثل كل الصحراويين. بدأ الصحراويون في المدن المحتلة يؤازرونه ويتخلون له جماعيا عن حقهم في زيارة أهلهم مقابل أن يذهب هو. في الأخير انتزع حق الزيارة، وذهب ليرى شعبه الذي استقبله استقبال الأبطال. كل الشعب الصحراوي ذهب ليرى هذه الأسطورة التي هزمت سجن المملكة المغربية الرهيب. أثناء الزيارة التقى مع رفاق السلاح، ورغم المدة التي قضاها في السجن وتأثير ذلك على التذكر إلا ان ذاكرته، حسب شهادات الذين زاروه، لا زالت قوية، وقالوا انه عرفهم وأنه ذكرهم بوقائع نسوها هم.

فإلى غاية سبتمبر 2001م كان صدى انتفاضة 99م لا زال يتردد في شوارع المدن الصحراوية المحتلة، وفي نفوس الصحراويين خاصة الذين عاشوا أحداثها البطولية. فتحت شعار " حتى لا ننسى، ومن أجل حفظ ذاكرتنا حية"، أحياء الحقوقيون الصحراويون إلى جانب مواطنيهم الذكرى الثانية لتلك الانتفاضة ابتداء من 22 سبتمبر 2001م على مدى أسبوع. خلال التظاهرة استعادت مدينة العيون المحاصرة ذكرى انتفاضتها الباسلة التي قمعت ببشاعة. ذهب المشاركون إلى زيارة الأماكن التي سال فيها الدم وسقط الجرحى، ووضعوا باقات من الورود في تلك الأماكن وبدأوا أسبوعهم. أقاموا المعارض الفوتوغرافية، وعرضوا أشرطة الفيديو الخاصة بالحدث، وعلقوا على الجدران لافتات كبيرة كتبوا عليها " لا بد من وضع نهاية لانتهاكات حقوق الإنسان في الصحراء الغربية."، " لا راحة ولا نوم ما دام إخواننا في السجن." وتخللت التظاهرة تدخلات للكثير من الذين اختطفوا إبان تلك الانتفاضة التي لا تنسى، كما وجهت عديد الرسائل والتوصيات إلى المنظمات الدولية ورمي الكثير من هذه الرسائل أمام مقر الأمم المتحدة في المدينة.

على الأرض تواصلت الانتفاضة أكثر وتمكنت في منتصف نوفمبر 2001م من منع ملك المغرب من زيارة مدينة السمارة التي سيطر عليها المتظاهرون المنتفضون بالكامل. لم تستطع قوات الأمن الاشتباك معهم فاستنجدت بالجيش المغربي المرابط قرب المدينة. في الليل قام الجيش مدعوما بالدبابات بتوغل، لا يبتعد كثيرا عن توغلات الجيش الإسرائيلي في المدن الفلسطينية، فأعاد احتلال المدينة بالقوة. دخل الجيش المدعوم بقوات الأمن المدينة ليزرع الرعب في أوصالها ويسكت أنفاسها فكانت المجزرة. بقيت آثار الدم في الشارع وعلى الجدران، وسبق الشباب المنتفض بالعشرات إلى السجن. كل العالم تحدث عن فظاعة ما جرى، فحتى مجلس الأمن في جلسته ليوم 30 نوفمبر 2001م عبر عن مخاوفه بشأن ما حدث في السمارة. نفس الشيء حدث حتى في الولايات المتحدة الأمريكية حيث بعث 10 أعضاء من الكونغرس رسالة إلى الرئيس بوش يوم 28 نوفمبر 2001م يخبرونه فيها بحال حقوق الإنسان في الصحراء الغربية والاستفزازات المغربية التي قام بها الملك المغربي حين زار الإقليم غير خاضع للسيادة المغربية.

لم يعد المغرب قادرا على السيطرة على المدن الصحراوية الثائرة رغم انه جلب إليها 7000 رجل أمن جديد منذ 2001م. كل العالم أصبح يريد الذهاب إليها للوقوف على حقيقة ما يجري في هذه المنطقة المحولة إلى ثكنة عسكرية محروسة، ولا تتمتع بما يتمتع به باقي أقاليم المملكة. ففي شهر ديسمبر 2001م طلب وفد من الاتحاد الأوروبي زيارة مدينة العيون للقاء الفعاليات الحقوقية الصحراوية، والوقوف ميدانيا على حقيقة ما يجري في هذه المدن التي تعيش ضغطة أمنيا رهيبا. حين علم الصحراويون بالزيارة بدأوا يحضرون لاستقبال هذا الوفد الهام بالتظاهر السلمي في شوارع المدن المحتلة، لكن المشكلة أن المملكة لا تريد هذه المظاهر وتريد الوفد أن يأتي حين يكون الجو صافيا والشمس ساطعة. كانت الزيارة تؤجل كل مرة حتى دام التأجيل شهرين كاملين. نفذ صبر الأوروبيين وضغطوا على المملكة حتى سمحت لهم أخيرا بزيارة العيون في جو رهيب من حظر التجول. في المدينة لم ير الزوار أي صحراوي في الشوارع، وكانت الزوايا كلها محروسة برجال الأمن. ففي يوم 12 فبراير 2002م كان الوفد في العيون، وهناك التقى الفعاليات الحقوقية الصحراوية، وشكل اللقاء انتصارا باهرا للمقاومة السلمية خاصة العمل الحقوقي المنظم. والذي فأجا الوفد خلال لقائه بمختلف التفرعات الحقوقية الصحراوية، هو أن هؤلاء قوة حاضرة في الإقليم، لكنها مغيبة عن الساحة الدولية بفعل الضغط الممارس عليها. ففي الجلسة الأولى التقى الوفد مع فرع الصحراء الغربية التابع لمنندى الحقيقة والإنصاف، وقدمت له رزمة من التقارير الموثقة الخاصة بوضع حقوق الإنسان المتدهورة في الإقليم، والخروق الفظيعة التي تمت تحت الاحتلال. وبعد نقاش معمق توصل الوفد إلى ان

منشأ هذا الوضع المزري لحقوق الإنسان ناتج عن خرق حق تقرير مصير شعب الصحراء الغربية. وجمع اللقاء الثاني الوفد مع لجنة التنسيق التي تضم كوكبة من المعتقلين السابقين يترأسهم سيدي محمد ددش ومينتو حيدار وإبراهيم الصبار ومجموعة أخرى من أبطال الانتفاضة. وبعد نقاش طويل مرفق بالدلائل خلص الوفد أيضا إلى أن خرق تقرير المصير في هذا الإقليم قد أدى إلى هتوك عديدة لحقوق السكان الأصليين في مجالات كثيرة اجتماعية وسياسية واقتصادية. وكانت للوفد لقاءات مع لجنة عائلات المفقودين الصحراويين، وقدمت له ملفات بالأسماء والصور لمئات الحالات المفقودة من ضحايا الاختفاء القسري الذين لا يعرف لهم أحد مصيرا.

لقد حقق العمل الحقوقي الصحراوي، رغم الخنق الأمني المغربي، إنجازات تاريخية في المدن المحتلة بعد أن تمكن من إزاحة الستار المظلم عن الإقليم الذي كان حديقة سرية مغربية تنتهك فيها بفضاعة حقوق الإنسان في الظلام بعيدا عن الأضواء والأعين. لقد تمكن الحقوقيون، باستعمال وسائلهم الخاصة، من نقل الصورة الحية للإقليم المنكوب بفعل إرهاب الدولة المغربية إلى العالم الذي يظن الكثير منه انه لم تعد في كوكبنا دولة تمارس هذا الأسلوب المهين للكرامة البشرية.

انتفاضة مفتوحة حتى تقرير المصير

" موضوع تقرير المصير لشعب الصحراء الغربية يعتبر أهم حق من حقوق الإنسان فيما يتعلق بالإقليم، وهو حق يستمد أهميته من الميثاق العالمي للحقوق السياسية والمدنية، والميثاق الدولي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، ويجب ان ينعكس احترام كل حقوق الإنسان لشعب الصحراء الغربية من خلال هذا الحق، وأي غياب له سوف يؤدي إلى تعثر لا محيد عنه في التمتع بكل الحقوق الأخرى التي تضمنها المواثيق الدولية المعمول بها." تقرير مكتب المفوضية السامية لحقوق الإنسان حول الصحراء الغربية مايو - يونيو 2006م

أ) انتفاضة الاستقلال 2005م

1- من الظلم... تتوالد الانتفاضات...

منذ سنة 1992م، تاريخ الشعور بالخيبة في تنظيم الاستفتاء، بدأت الانتفاضات الصحراوية تتوالد من بعضها البعض، فكلما قُمعت إحداها بالقوة تنزل الأخرى إلى الشارع قبل أن تجف دماء ضحايا الأولى، وقبل أن تمتص الجدران صدى أصوات متظاهريها المطالبين بتقرير المصير والاستقلال.

بداية بانتفاضة 92، مروورا بالانتفاضات والحراك الشعبي الذي تلاها، وصولا إلى انتفاضة سنة 1999م الكبيرة، بدأ الصحراويون يبذلون استراتيجيات وطنية في المدن المحتلة لكسر الحصار والجمود. كانت الانتفاضة فعلا ضاغطا عموديا قويا متوصلا في حلقات متسلسلة لا تنقطع. لقد مكن هذا الفعل، في الأخير، من وضع القضية الصحراوية في طليعة الأجندات الدولية، ولم يترك الحديث عنها أسير تقارير أمين عام الأمم المتحدة كل ستة أشهر. فلولا الانتفاضات لتم اغتيال القضية الصحراوية بالانتظار والنسيان المنهج الذي يعمقه الاحتلال بالحصار المضروب على أي خبر يتسرب من الداخل الصحراوي. سنة 2001م أيضا عرفت مظاهرات وأعمال احتجاج كبيرة تركت أملا وانطبعا جيدا في الوسط الصحراوي في كل مكان. أصبحت الانتفاضة حدثا يوميا لا يتوقف، يتنفس من خلاله الصحراويون بعد الكبت الذي عانوا منه تحت الاحتلال وفي الشتات. وبالمقابل زاد المغرب من خرقه لحقوق الإنسان؛ الاعتقالات لا حصر لها، التنكيل، القمع الوحشي الذي أدى إلى سقوط ضحايا تحت التعذيب. في سنة 2003م يتم اغتيال اثنين من مناصري القضية الصحراوية تحت التعذيب وهما محمد بوسته ورمضان الليثي، وفي 30 افريل 2004م يُغتال سليمان شويهي في الاعتقال في ظروف قيل انها غامضة مثل حال كل حالات الاغتيال التي تحدث في المغرب. يوم 18 ماي 2004م يغتال حسن هدي في السجن لكحل بالعيون بطرق تعذيبية قبيحة بتهمة التحضير لتخليد ذكرى 20 ماي الوطنية.

كانت نتيجة هذا الحراك هو الاتفاق على وضع استراتيجية طويلة الأمد من خلال الشروع في انتفاضة مفتوحة لا تتوقف ولا تهادن، تنشط يوميا، ليس في الشارع الصحراوي المحتل وحده، ولكن في كل الأماكن التي يتواجد فيها الصحراويون في تماس مع الاحتلال ولو في عمق المغرب.

2- وبدأ الفيضان الشعبي الصحراوي...

بداية شهر مارس 2005م كانت ساخنة في المدن المحتلة. نسقت جمعيات ولجان " حماية المعتقلين، " و"اللجنة ضد التعذيب" فعاليات نضالية متنوعة لصالح كل المعتقلين الصحراويين وتنديدا بالعبث بالموارد الإقتصادية للإقليم. قامت هذه الجمعيات أيام 1، 2 مارس بإخطار كل المعتقلين الصحراويين في السجون المغربية أنها ستشعر في سلسلة أعمال لصالحهم مثل الاعتصامات والإضراب عن الطعام. المبادرة لاقت تجاوبا سريعا من طرف المعتقلين في كل المدن المحتلة. يوم 3 مارس 2005م تجمعت حوالي 600 امرأة صحراوية في العيون المحتلة، ونظمن انتفاضة مطالبات بحقهن في التمتع بالحرية مثل بقية نساء العالم. في الحدث حملن صور أبناءهن من ضحايا الاختفاء القسري الذين لا يعرفن لهم مصيرا منذ اختطافهم من طرف الشرطة الحضرية وقوات الأمن المغربية على اثر مشاركتهم في الانتفاضة السلمية. وخلال هذه المظاهرة السلمية النسوية تناولت المناضلة مینتو حيدار الكلمة وطالبت "بكشف مصير المختطفين وإطلاق سراح المعتقلين الصحراويين، وأكدت على حق تقرير مصير الشعب الصحراوي."

في يوم 8 مارس 2005م، نظم الطلاب والطالبات الصحراويين أيضا مسيرة بمناسبة اليوم العالمي للمرأة في جامعة الرباط للتضامن مع انتفاضة النساء الصحراويات في العيون، وطالبوا بنفس مطالبهن. وبسبب حساسية المكان تدخلت قوات مكافحة الشغب وأحدثت مجزرة في صفوف الطلاب الصحراويين تركت وراءها 29 جريحا والعديد من المعتقلين. ولم يقتصر الفعل الهجمي المغربي عند هذا الحد، بل أن القوات المغربية لاحقت الطلبة في غرفهم وسكناتهم واعتقلت الكثير منهم. مثل هذه

الأحداث والانتفاضات كانت هي السبب في كسر جدار الصمت وبداية الفيضان الصحراوي الذي انساب إلى فضاءت أوسع وارحب..

انطلقت انتفاضة الاستقلال زمنيا بمناسبة ذكرى 20 ماي 2005م، وحدد تاريخ نهايتها عندما يعترف المحتل المغربي عمليا بحق الشعب الصحراوي في تقرير المصير والاستقلال. فبعد هذه الانتفاضة المتواصلة سيكون من الصعب تمييز انتفاضة أخرى عنها بمميزات ما، لكن كل ما سيليه سيخرج من رحمها وسيكون امتدادا لها في المكان والتاريخ اللاحق.

فالصحراويون، بعد القمع الذي لحق بهم، حتى لا يكرروا انتفاضة 99م و2001م، شعروا بالغضب، وأصبحوا ينتظرون شرارة صغيرة ليشعلوا انتفاضة كبيرة أو فيضان شعبي قوي يحرك الوضع الذي يريده الاحتلال راكدا. كانت بداية الانتفاضة صغيرة، لكن على ما يبدو كان الكل حاضرا في الميدان يتحرى أي شيء. فحين أقدمت سلطات الاحتلال على تحويل سجين الرأي الصحراوي من أحمد هدي الكينان من السجن لكل إلى سجن ايت ملول بداخل المغرب، احتجت عائلة هذا السجن أمام السجن والبلدية مدعومة ببعض الحقوقيين. وسبب تحويل المناضل الصحراوي أحمد هدي الكينان إلى سجن داخل المغرب هو بسيط، لكنه خطير على الاحتلال. لقد أقدم هذا المناضل على فعل لم تقبله عقلية الاحتلال المتغطرسة واعتبرته جريمة. قام بتمزيق الأوراق المغربية أمام السلطات الرسمية وطالب بجنسيته الصحراوية الأصلية.

لكن المشكلة أن المخزن لا يعرف الاحتجاج السلمي، فرفع عصاه على المحتجين وحاول تفريقهم بالقوة. وفي خضم المشادات بين عائلة المعتقل والبوليس هبت ساكنة مدينة العيون لنجدة العائلة. إن الحدث حسب الذين عاشوه لا يمكن أن يتم تصويره بدقة أو الحديث عنه بتفاصيل، فخرج الصحراويين للتظاهر كان أشبه بالنفخ في الصور أو بإطلاق صفارة في ثكنة للمتدربين العسكريين. ففي عدة دقائق كانت المدينة عبارة عن غابة من الأعلام الملونة الصحراوية، وكانت اللافتات تجوب الشوارع مطالبة برحيل الاحتلال. في اليوم التالي، حدث الفيضان الصحراوي في الشوارع، وكادت المدينة تصبح تحت سيطرة المنتفضين لولا تدخل الجيش والقوات المساعدة. كان التدخل بشعا جدا خاصة من طرف مجموعات الأمن الحضري (GUS (groupes urbains de securite) التي تم تكوينها خصيصا لغرض مكافحة الانتفاضة الصحراوية، وتتواجد كلية في المدن المحتلة.

في ذات اليوم كان رنين التلفونات لا يتوقف يحمل للمتظاهرين أخبارا سارة عن شمول الانتفاضة كل المدن الأخرى والأماكن التي يتواجد فيها الصحراويون؛ العيون، السمارة، الداخلة، بوجدور، أسا، الطنطان، إلخ.. كل هذه المدن استجابت آليا للنداء والمؤازرة بفعل مكالمات هاتفية معدودة أرسلت من العيون المنتفضة.

ما حدث مما كان متوقعا من قبل الاحتلال، جعل الهراوة المخزنية تخرج من غمدها، وتبدأ مهمتها القذرة. أفقد التظاهر السلمي والتلويح بالأعلام الوطنية الشرطة صوابها، فهاجمت المتظاهرين في كل مكان وصله فعل الانتفاضة خاصة في حي معطلا وحي الزملة مهد الانتفاضات. بدأت الهمجية المخزنية فعلها؛ تمت مهاجمة المتظاهرين بخراطيم المياه والصبغة، وانهالت المشاة المسلحة بالعصي والقضبان والسلاسل الحديدية على المتظاهرين العزل فسقط الجرحى وسال الدم غزيرا. وحسب الأوامر المخزنية يجب أن يتم ضرب المتظاهرين على الرأس والوجه والأماكن الحساسة، وتكسير عظامهم خاصة الأذرع والسيقان والأضلاع. في الأيام الأولى تم منع الصحافة من الاقتراب من المكان، ولما حل يوم 29 مايو ظنت الشرطة أنها تحكمت في الفيضان وأوقفته. طلب والي العيون من بعض الصحافة المنتقاة الدخول إلى المدينة، لكنه في الوقت الذي كان يقول لهم أن الوضع تحت السيطرة حدث فصل آخر من الانتفاضة أمام أعينهم.

وفي محاولة لإرهاب المتظاهرين، قامت بعض الوحدات العسكرية بمحاصرة الأحياء الصحراوية، وشنت حملة تتارية لحرق ونهب منازل ومتاجر الصحراويين وتكسير زجاج سياراتهم وحرقها. وبالرغم من كل هذا خرجت الانتفاضة في الأيام الموالية عن دائرة سيطرة الاحتلال، ومضت نحو الهدف الذي أرادت. أن المهمة التي ستكون صعبة مستقبلا هي مهمة المؤرخين الذين سيتناولون موضوع انتفاضة الاستقلال، لأنه سيكون من شبه المستحيل بالنسبة لهم الإلمام بتفاصيلها ورسم صورة ملونة لها، خاصة حين يحاولون وضع كرونولوجيا لها بسبب تنوعها، فحتى لو توخوا الدقة سيظلون مقصرين في حقها. لقد حدثت هذه الانتفاضة في كل مكان يتواجد فيه صحراوي حتى لو كان قسما دراسيا في عمق المغرب ويتواجد فيه تلميذ صحراوي أو اثنين. وحتى تحاول سلطات الاحتلال التخفيف من حدة الصدمة، وخلق جو مضاد من التظاهر أقدمت على شراء آلاف الأزياء الصحراوية وخياطتها وتوزيعها على المستوطنين، وطلبت منهم أن يخرجوا إلى الشارع للتعبير عن الرأي المخالف للانتفاضة الصحراوية. وحسب بعض موظفي المينورسو الذين تم استدعاؤهم لرؤية الحدث فإن كل ما حصل من طرف المستوطنين كان يظهر انهم يمثلون مسرحية كوميدية.

3- وجه مينتو حيدار المخضب بالدم... صورة وجه العيون الجريحة

ربما تتذكر مينتو حيدار انها قالت في لحظة غضب: "العيون كلها في السجن لكحل." في رمزية إلى أن هذه المدينة أصبحت محاصرة عن آخرها. مرة أخرى قالت في السجن "تستطيعون قتلي لكن لا تستطيعون قتل أفكاري ومعتقداتي."

في واقع الأمر أصبحت العيون كلها، بفعل القمع، مدينة جريحة تنزف دما وتمسح جراحها الكثيرة. بدأ شهر يونيو عاصفا بالانتفاضات التي يقابلها قمع بشع لا مثيل له في الصحراء الغربية. فمثلا في المظاهرة التي وقعت يوم 17 يونيو 2005م، على الساعة السابعة ونصف، قامت الشرطة بعملية بوليسية مخطط لها من قبل لاعتقال ثلاثة نشطاء من بين المتظاهرين تصفهم التقارير الأمنية بأنهم خطرون ويتحكمون في تحركات الشارع. كانت الشرطة تتابع تحركاتهم بدقة لتضبطهم ثلاثتهم في الشارع لتعتقلهم جملة واحدة. النشطاء الثلاثة هم امينتو حيدار وليدري الحسين وفاطمة عياش، هذه الأخيرة متهمه أن بيتها هو عش لقيادة الانتفاضة. وقع الثلاثة في الاعتقال في مظاهرة يوم 17 يونيو، وتم الانتقام منهم بوحشية مروعة في الشارع قبل أن يذهبوا إلى المعتقل. تعرضوا للضرب بقضبان من الحديد على الرؤوس والوجوه مع التعمد في استهداف العظام السهلة الكسر والخطيرة خاصة العمود الفقري. في عدة دقائق انتهت العملية الانتقامية وخلفت وراءها الثلاثة في الشارع يتخبطون في دمائهم في حالة إغماء تام. حدثت مجزرة كبيرة تم تصويرها، وكانت أول صورة معبرة عن ما وقع من همجية هي صورة وجه الحقوقية مينتو حيدار الذي ظهر مكبرا وموشحا بدمائه. أن تلك الصورة التي جابت العالم فضحت الخطاب المغربي المصدر إلى الخارج الذي يتباهى بالحديث عن مغرب حقوق الإنسان والديمقراطية وعدم استعمال العنف. بعد نشر تلك الصورة فهم العالم أن تلك الشابة كانت تتظاهر سلميا مطالبة بحقها وحق شعبها، لكن تمت إجابتها بالعصا بدل الكلمة حتى حدث لوجهها ما رأى العالم من منكر.

الحدث الفظيع جعل الأضواء تسلط على مدينة العيون أكثر وعلى الشابة الضحية صاحبة الصورة. بدأ الحديث ساخنا عنها وعن الحدث من تلك اللحظة. فُتح ملفها النضالي فعرفنا أن لها تاريخ طويل مع العمل الوطني الحقوقي؛ اعتقلت سنة 87م وتم

اختفاؤها لمدة ثلاثة سنوات دون أن ترى ولديها حياة ومحمد أو تستطيع أن تكمل دراستها. تعرضت لكل أنواع التعذيب: " وضعوني في حوض من الماء الجامد ولا أعرف كم قضيت فيه. كانوا يضعون الجافيل على فمي وعيني حتى أفقد الإحساس بالوجود وبالعلم حولي. لم أعد أعرف في أي يوم أنا وفي أي تاريخ. تساوى الليل والنهار، ولم يعد هناك ما يدل على أن هناك شخص بجانبني ما عدا الحارس فقط. "

في يونيو 2001م وقعت تحت الرقابة لأنها أصبحت خطيرة في نظر الاحتلال. اعتقلت مرة أخرى في 2002م، ثم أصبحت تحت الإقامة الجبرية حتى حدثت انتفاضة الاستقلال. ولعاقبها أكثر مُنعت من السفر وحرمت من الحصول على جواز سفر لمدة سبعة عشر سنة. لكن ما حدث لها في 17 يونيو 2005م جعلها تصبح رمزا وطنيا في وجدان الصحراويين. بعد التعذيب في الشارع تم حملها مع رفاقها الجرحى من طرف بعض المواطنين إلى المستشفى للعلاج وهم بين الحياة والموت. في المستشفى قام الأطباء بخياطة رأس مينتو حيدار بسبع عقد، بينما زميلها ليدي الحسين خُيط رأسه بخمس عقد. في الخارج كانت الشرطة تتحرى متى يخرجون للقبض عليهم. على الساعة الحادية عشر تم القبض عليهم في المستشفى قبل أن تجف جراحهم أو يتركوهم يغسلون دماءهم. في مخيمات اللاجئين دخلت الشابة البطله أغاني وقصائد الشعراء وأصبح أسمها على كل لسان. الكل يتحدث عنها حتى الأطفال في المدارس والشوارع وفي كل مكان، لكن شهرتها الأكبر كانت خارج الحدود. استطاعت أن تتخطى الحدود وتفتح الكثير من العواصم حاملة علم بلدها في يدها وراسمة إشارة الانتصار.

حين كنت أنظر إلى صور المظاهرات في المدن المحتلة على صفحة الأنترنت في إحدى المقاهي الأسبانية سألني إسباني كان جالسا بجانبني: هل أنت فلسطيني؟

قلت له: لا

قال: هذه انتفاضة الفلسطينيين ضد الإسرائيليين؟

ولم أشأ أن أقول له أن هؤلاء صحراويون في المدن المحتلة، لكنني اكتفيت بما شهد به من هو ضد همجية الاحتلال المغربي التي لم تجد مقاربة لها ما عدا مع إسرائيل.

في الأراضي المحررة تحرك الصحراويون هناك لنجدة مواطنيهم الذي يتعرضون للقمع. فبعد الانتفاضة مباشرة كتبت جبهة البوليزاريو رسالة في بداية يونيو إلى الأمين العام ومجلس الأمن تخطرهم فيها بما حصل من قمع في المدن المحتلة، وتطالبهم بالتدخل لحماية المواطنين الذين تتم تصفيتهم وتهان كرامتهم. لم يفعل مجلس الأمن أي شيء، فكتبت البوليزاريو مرة أخرى إلى نفس المجلس مرتين متتاليتين بتاريخ 12 و 18 يونيو تطالب " إصدار أمر للبعثة الأممية لتقوم بحماية المدنيين الصحراويين " وتنبه إلى أن المغرب يحضر لمسرحية يقوم بها المستوطنون الذين وُزعت عليهم الملابس التقليدية الصحراوية وطلب منهم الخروج إلى الشارع للتعرض للمنتفضين الصحراويين. "

وتحرك المغرب كله تحت قيادة ملكه ليقمع الانتفاضة؛ قام يوم 22 يونيو بتبديل والي العيون وحل محله مسؤول من رجال الأمن، وُضعت تحت تصرفه حوالي 7000 رجل من قوات " مجموعات الأمن المدني " GUS ". في نفس الأيام تم سن قانون جديد يمنع التعرض للرموز الوطنية ويعاقب من يحرق العلم المغربي ب6 أشهر إلى ثلاث سنوات سجنا نافذة ودفع غرامة قدرها حوالي 10 الاف يورو..

3- زفاف شهيد الانتفاضة... حسبه أن علم بلاده كان كفه

وإذا كان للانتفاضة جرحى ومعطوبين كثيرين جابت صورهم الملطخة بدمائهم العالم، فكان لها شهداء أيضا. فبطريقة وحشية، هي من ابتكار عبقرية المخزن المغربي الدنيئة تم أسر الشاب حمدي لباركي على أثر مشاركته في انتفاضة في 30 أكتوبر 2005م بمناسبة مرور ثلاثين سنة على الغزو. وحسب بريد الكتروني من المدن المحتلة فإن الشاب كان يكتب على جدار " ثلاثون سنة كفى" في إشارة للمطالبة برحيل الغزو. اعتقلته مجموعة من الشرطة وقادته إلى الجدار الذي كان يكتب عليه ويرسم علم بلاده. وللانتقام منه امسكوه من أطرافه، وبدأوا يضربون رأسه على الجدار لمحو ما كتب حتى أصيب بنزيف في المخ ورضوض وكسور في الجمجمة، وسقط على الأرض في حالة إغماء تام. ورغم دناءة الفعل، فإن الشرطة ارتكبت فعلا آخر أكثر خساسة من الأول، فحين سقط الشاب مغمى عليه متأثرا بما حصل له، تركوه في حالة موت على الرصيف وهربوا عنه. في المستشفى قضى الشاب مثل الأبطال. ورغم انه كان شابا عاديا شجاعا إلا أنه باستشهاده دخل تاريخ وطنه دخول الفاتحين، خاصة حين كفن بالعلم الوطني ليكون أول شهيد يحصل على هذا الشرف. ففي يوم جنازته ودعه الصحراويون بالآلاف وبكوا عليه، ثم حولوا جنازته إلى مظاهرة حاشدة يحملون صورته في يد والعلم الوطني في يد أخرى. في الطريق كانت الكماين في انتظارهم؛ ففي كل مدخل مؤدي إلى المدينة كانت هناك كتيبة من الشرطة تنظر المعزيين الذين شاركوا في الجنازة. تم اعتقال حوالي 75 شخصا وكُسّر زجاج السيارات التي تحملهم وغرقت المدينة في الظلام. إن تحول جنازة الشهيد حمدي إلى مظاهرة أعطته شرف قيادة الانتفاضة وهو حي وقادها وهو شهيد. وإذا كان الصحراويون في المدن المحتلة قد ودعوه وداع الأبطال فإن شطرهم الآخر في المخيمات والمناطق المحررة قد أطلق اسمه على مؤتمر الشبيبة الصحراوية الذي انعقد بعد استشهاده.

ولم يمض وقت طويل حتى تم اغتيال شهيد آخر في مدينة الطنطان هو لخليفة ابا الشيخ يوم 3 ديسمبر 2005م.. وحسب شاهد عيان فإن الشاب المذكور تعرض للاغتيال في الشارع وفي واضحة النهار من طرف ضابط مخابرات مغربي ألقى عليه القبض بسبب مشاركته في مظاهرة سابقة. بدأ يضربه على الرأس، ويقول له: أنا ضابط أمن" حتى حدثت صدوع في جمجمته فارق على أثرها الحياة في المستشفى. أما الجرحى والمعطوبين فلا يمكن حصرهم، لأنه من النادر أن ينجو أحد شارك في الانتفاضة من الوحشية.

(ب) الفيضان ... وإرهاب المخزن

1- إرهاب شعب مدني أعزل...

بشمولية الانتفاضة لكل مواقع التواجد الصحراوي في الوطن المحتل وداخل المغرب، يكون الفيضان قد كسر السد القديم وانطلق إلى فضاءات أوسع وأرحب. فبموازاة مع الانتفاضة المتواصلة انتهجت المملكة المغربية خطة إرهاب المدنيين لحصر التظاهر الشعبي حتى يتم تجفيف منابع الفيضان الذي بدأ ولم يعد أحد يمكن أن يتحكم فيه. ومشكلة المملكة المغربية أن الانتفاضة الصحراوية ليست انتفاضة اجتماعية يمكن تطويقها بحل المشاكل التي ألهبتها، إنما هي انتفاضة تطالب بحق قانوني هو تقرير المصير، وتحت هذا الحق تنضوي لائحة طويلة من حقوق الإنسان المعترف بها دوليا. ولما كانت هذه

الانتفاضة متميزة في هدفها، ولا يمكن التعامل معها بتوفير متطلبات مادية مثل السكن والشغل وحل بعض المشاكل اليومية التي تطالب بها عادة المظاهرات، فإن المخزن لجأ إلى الإرهاب المدني لتصفية النشطاء الحقوقيين الذين يقودونها، والشباب الذي يحمل أعلامها في الشوارع يوميا.

إن ما نطلق عليه إرهاب المدنيين من طرف المخزن، قد لا يكون جديدا كإستراتيجية لا أخلاقية يلجأ إليها نظام عاصي مع شعبه ليصفي الذين يعارضونه، أو الذين لا يتفقون معه في التصور. إنه إرهاب تقوم به الدولة الخارجة عن القانون والأخلاقيات، وتنفذه أجهزة بطشها المختلفة بشتى الطرق. في هذا الإطار يمكن أن نذكر الكثير من الأنظمة التي مارست ظاهرة إرهاب معارضيها مثل الديكتاتوريات القديمة في أمريكا اللاتينية وأوروبا الشرقية، لكن حديثا لم يبق يقوم بهذه الظاهرة المشينة سوى نظام واحد هو النظام المغربي. إن هذا النظام معقد نفسيا بسبب عدم تمتعه بالشرعية السياسية والديمقراطية، ويحس انه في مواجهة مع الجميع بما فيهم شعبه وجيرانه. ومما زاد من تعقيد وضعه غير القانوني اعتدائه على جيرانه كلهم وتهديدهم في البر والبحر. ففي الماضي خاض هذا النظام الكثير من المعارك مع شعبه في الريف والجنوب واغرق المنطقة في الدم لكبح جماح التمرد، لكن ذلك الفعل لا زال ماثلا في ذاكرات تلك المجموعات العرقية التي نُكل بها، ولا زال الغضب لم يطفأ في الصدور.

منذ 75م وهذا النظام يمارس الإرهاب ضد المدنيين الصحراويين المتحدين تحت مظلة تاريخهم وثقافتهم وسلطتهم الاجتماعية ونظامهم السياسي. ومنذ ذلك التاريخ أيضا وهم يكررون نفس المطلب، وهو تقرير المصير والحرية وخروج الاحتلال. لكن المشكلة أنه ما لم يفهم النظام المغربي أن الشعوب لا يقضى عليها، وأن الهدف الذي يموت من أجله هو هدف سيُوصل إليه، فإن القضية ستظل مزعجة بالنسبة للمغرب والمنطقة.

إن الانتفاضة الصحراوية السلمية كانت نموذجا حيا للمعارضة التي تمت محاولة تصفيتيها عن طريق إرهاب الأجهزة المخزنية لها بطرق لا تعد ولا تحصى. ومثلا إذا حاولنا أن نعد بعض هذه الطرق التي تم تجريبيها سنجدتها تسير في اتجاه واحد هو إرهاب المواطنين بالتصفية بكل أنواعها. ورغم أن هذا النوع من الإرهاب مورس منذ البداية، إلا انه كُثف ضد الانتفاضة الحالية بطريقة ممنهجة وبأساليب أكثر من السابق. وهنا يمكن أن نذكر بعض الحالات من هذا الإرهاب الذي تعرض له نشطاء الانتفاضة الصحراوية.

2- النشطاء الحقوقيون ... وأجندة الترهيب

في المغرب توجد خمسة أنظمة أمنية كل واحد منها يراقب الآخر، لكن حين اندلعت الانتفاضة في المدن المحتلة، تم تحويل كل هذه الأجهزة مجتمعة لتراقب الصحراويين وترهبهم. لقد اتضح إن هذا الشعب الصغير هو العدو رقم واحد لهذه المملكة الكبيرة التاريخية. فحين يتم القبض على معتقل صحراوي يظهر له معتقلوه نواياهم مباشرة التي تعكس نوايا نظامهم. انهم يقولون للذين يقبضون عليهم: " صدق الحسن الثاني حين قال للدليمي يجب تصفيتكم. " ويقولون لهم بنفس الحقد: " لو كان بيدي الأمر لأحرق كل الصحراويين أحياء. " وفي مرات أخرى يقولون لهم: " رفضتم ضيافة المغرب لكم حين قدم لكم الشاي، والآن هاكم النوع الثاني من الضيافة المغربية. " وينهالون عليهم بالعصا. لما يبلغ الغضب أقصى مداه

برجال التحقيق يقولون للمعتقلين: " نحن لا نريدكم أنتم. نحن نريد الأرض فقط. لا نريد مزيدا من السكان. إننا نصردهم إلى أوروبا مثل الطماطم والبرتقال".

خلال الانتفاضة المتواصلة طغى العمل الحقوقي المنسجم مع القانون على الساحة الصحراوية، وأصبح مزعجا للمملكة التي كانت صماء وعمياء، ولا يهتمها القانون بقدر ما يهتمها تنفيذ سياستها البوليسية والاستمتاع برذائلها المشهورة في التاريخ. فمن بين الوسائل القمعية للقضاء على الانتفاضة هو محاولة إسكات صوت الحقوقيين الذي انتشر في العالم وسبب صداعا لرأس المملكة. ولتنفيذ دورها القذر تقوم القوات المخزنية والعسكرية بمتابعة النشاط وتلفيق تهمة لهم لسجنهم عدة سنوات. ففي كل المحاضر توجد تهمة ملفقة تتكرر بنفس المفردات: " محاولة تشكيل عصابة أشرار للإخلال بالأمن، والتعرض لعناصر الأمن أثناء تأدية عملهم. " ورغم أن التهمة غير متوفرة إثباتا إلا أن جهاز المخابرات البوليسي يقوم بفبركة تهمة لهم ويعتقلهم. حين لا ينفذ الإرهاب المعنوي، تقوم الشرطة بتعذيبهم حتى يفقدون الوعي، بعد ذلك تدس لهم مخدرا مسكرا في الماء وتسقيه لهم. وحين تغيب الدنيا من أمام أعينهم يطلبون منهم توقيع محضر قضائي وهم فاقدون الوعي، أو يرغمونهم على توقيعهم وهم معصوبي الأعين. في المحكمة، حين يمثل هؤلاء أمام القاضي يتلو عليهم محضرا ملفقا مزورا، ويحاول أن يقنعهم انهم فعلا وقعوا عليه. ولما يرفضون الاعتراف يحالون إلى قاعة مجاورة للمحكمة يسمونها "قاعة المجزرة" ويتعرضون للتعذيب، ثم يعادون إلى القاعة للمحاكمة إن هم قبلوا الاعتراف. وعندما لا ينفذ هذا يحاولون تصفيتهم بشتى الطرق؛ فأحيانا يستعملون الدهس بالسيارات، وهي طريقة شائعة في المغرب ومنذ القديم، خاصة ضد السياسيين. فإذا تم القبض على شخص في انتفاضة يحمل عنوة في الليل ويرمى في الطريق السريع خارج المدينة مكتوف الأعضاء لتدهسه السيارات المارة بالطريق بسرعة. أحيانا أخرى تهاجم مجموعة من جهاز المخابرات في لباس مدني الناشط المطلوب، وتطلب منه أن يختار بين ترك الإقليم أو يقتل في أيام، وإلا يتعاون معهم ويصبح مخربا سرياً. وحين يعاندون تتم ملاحقتهم ومن يُلقى عليه يوضع كيس بلاستيكي على رأسه ويخنق حتى يقارب مفارقة الحياة ثم ينهالون عليه بالضرب في سيارة الشرطة حتى يغمى عليه ويرمى في مكان خارج المدينة في الليل.

ولا يتوقف إرهاب هؤلاء عند هذا الحد، فهم يعيشون حياة يومية مراقبة؛ سياراتهم مراقبة، أجهزة هاتفهم واقعة تحت التصنت، فكلما شُهد أحدهم يتكلم في الهاتف ولو مع أمه يتم استدعاؤه واستنطاقه بطريقة مهينة. إن هؤلاء- في نظر البوليس- ينقلون عدوى الانتفاضة إلى الآخرين، فإذا ضُبط أحدهم مثلا في سيارة يتم اتهام كل من فيها بركوب قافلة النضال السلمي، ويسجلون عند الشرطة وتحرر لهم محاضر. ويتعدد الإرهاب ويتنوع ضد النشاط، فهم ممنوعون من السفر إلى الخارج وبلا وثائق، وممنوع تنقلهم بين المدن الصحراوية وعائلاتهم تحت المراقبة. إن الشرطة بالمرصاد لهم دائما، ومن حالفه الحظ منهم ووقفت المنظمات الدولية إلى جانبه يستطيع أن يخرج بعد أشهر من الماطلات.

من جهة أخرى تلجأ المخابرات المغربية إلى العناصر الأكثر هشاشة عاطفية في عائلة الحقوقي، وتبدأ في إرهابها. فمثلا يطلبون من العائلة لجم تحركات ابنها وإلا فإنه سيصفي. إن إرهاب العائلات الذي تمارسه المخابرات على عائلات الحقوقيين هو إرهاب لا يخطر على بال بشري، ولم تقم به من قبل أي دولة أو إمبراطورية ولا قوة استعمارية في التاريخ. فهم يرهبون كل أفراد العائلة، ولا يهتمهم هل هم مسنون أو أطفال أو قاصرون، ويركزون بالأساس على الأفراد المباشرين كالأمهات والأخوات، فيحشدون كل ما استطاعوا من مخاوف في نفوسهم لجعلهم يؤثرن على النشاط لثنيهم عن عزمهم.

إن من أشهر وسائل التهريب تهديد الأخوات والبنات، حتى لو كن قاصرات، بالاغتصاب، وتهديد الأمهات بإخفاء الابن إلى الأبد إن هو قبض عليه في الانتفاضة. ففي مرات عديدة تم اختطاف الكثير من النساء اللاتي لهن رابطة قرابة عائلية مع النشاط، البعض منهن تم جرها بواسطة شعرها مسافة 50 مترا، والكثير من الحالات تم سكب البنزين على ملابسها، وهددوها بإشعال النار فيها إن لم تطلب من قريبها الكف عن النشاط السياسي. ففي إحدى الحالات تم اعتقال المناضلة د.ع في العيون من طرف أحد الضباط، وتبول عليها ثم أشعل النار في ملابسها، وحين نجت تم رميها في قمامة المدينة على بعد خمسة كيلومترات من مكان سكنها. الكثير منهن أيضا مورس عليه تعذيب يشعر الإنسان بالتقزز حين يُحكى عليه مثل استعمال العصي وإدخالها في الضحية أو اغتصابها وسكب الخمر على أعضائها الداخلية وهي عارية. هناك أيضا من سكب الحامض وماء جافيل والخل على رأسها لتبقى بلا شعر إلى النهاية، أو التي أطلقت عليها الكلاب عارية لتعضها مباشرة (0) وبشهادة بعض الناجيات من المعتقلات فإن "رجال الأمن كانوا يوجهون السكارى منهم إلى النساء لأن الواعيين قد لا يفعلون ما يفعل السكارى". إن ما حدث شيء مروع وحتى الذين وقع عليهم لا يمكن أن يصفوه بدقة وتفصيل.

إن الحقوقيين لا يستطيعون التحرك بحرية وطريقة عادية في وطنهم، ففي كل زاوية يوجد كمين، وأمام كل خطوة هناك حجر عثرة أو فخ منصوب للإيقاع بهم. إن تأثير مثل هذا النوع من الإرهاب مضر بالأعصاب، لكن من جهة أخرى تعود هؤلاء عليه وتآلفوا معه وأصبحوا يتحدونه.

3- الحرق ليكون قدوة...

إن سلاح التهريب المغربي ممنهج ومبرمج، وسطرت له أجندة خاصة به، لا تركز على أسلوب واحد أو اثنين أو عشرة، فكلما فشل أسلوب يلجأون إلى آخر. فأتناء الانتفاضة استعملت القوات المخزنية قضبان حديدية مغلقة بالبلاستيك لضرب المتظاهرين، وكانت تلك القضبان المموهة هي التي أحدثت رضوضا وجروحا وكسورا في أجساد المتظاهرين، خاصة في الأطراف والأضلاع والترقوة والأذرع. ففي البداية كان الناس يظنون أنها هراوات عادية من الخشب، لكن بعد التحري اكتشفوا أن هذه العصي هي قضبان حديدية. كانوا أيضا في مرات كثيرة يحاولون إشعال النار في ملابس المتظاهرين التقليديّة الفضاضة مثل الملاحف والدراريع. فحين يهاجمون المتظاهرين ويلتحمون معهم يستعملون ولاعات ذات لهب كثيف لإشعال النار في الملابس حتى يحترق المتظاهر حين تلامس النار الهواء.

ولا يتوقف أسلوب التهريب بالحرق عند هذا النوع فقط، لكن حاولوا في حالات عديدة سكب البنزين على المتظاهرين وإشعال النار فيهم أحياء مثل حالة المواطن الصحراوي السعيد السالك الذي أُحرق حيا ونجا بمعجزة. اشتعلت النار في جسده كله خاصة الرأس والوجه والصدر حتى تفسح الجلد وكادت تظهر العظام. أن صور هذا الناشط بعد الحرق لا يمكن لأحد أن ينظر إليها على صفحة الأنترنت، وقد كتبت بعض المواقع التي نشرتها تحتها "لا يسمح للنساء الحوامل والأطفال مشاهدتها". وبعد أن شفي تم اختطافه مرة أخرى في نهاية 2006م. ولم يستعمل الحرق في الشارع فقط، بل أستعمل في الحبس لكحل بالعيون، عندما قامت مجموعة من السجناء المغربية بتحريض من قوات الأمن بصب أواني من الزيت المغلي على بعض الصحراويين والمضربين عن الطعام في زناناتهم لحرقهم. إن أسلوب الحرق بالنار هو أسلوب مألوف في التهريب المغربي، فأغلبية الذين قبض عليهم تم سكب البنزين على ملابسهم وتهديدهم بالحرق إن هم عادوا إلى فعلهم. ولا يتوقف

إرهاب الاحتلال عند نوع واحد من التصفية، لكن بالإضافة إلى ذلك تعرض الكثير من الشباب إلى الرمي من فوق الجسور، ومن فوق المباني إلى الشارع مباشرة لتكسير عظامه، وتعريضه للعاهات غير القابلة للشفاء. فعقب المشاركة في كل انتفاضة تحدث مجازر، ويصاب الكثير من المشاركين فيها بجروح خطيرة لكنهم لا يذهبون إلى المستشفى لأن الشرطة تكون في انتظارهم لتلقي عليهم القبض. في غالب الأحيان يتم تعذيب الجريح في المستشفى إن هو قبض عليه فيه، وفي الأخير تم منع الأطباء من معالجة جرحى الانتفاضات، وإذا فعل أحدهم ذلك يفصل من العمل ويؤتمهم بالتعاطف مع المتظاهرين.

4- أترك الإقليم أو أترك السياسة وال... .

ورغم هذه الأجندة المعقدة ذات التأثير الهدام على النفس البشرية لم تتوقف الانتفاضة. فالكثير من الذين اعتقلوا تعرضوا لنوع آخر من التهريب مثل شحنهم في سيارات عسكرية ورميهم في الليل بعيدا عن مكان سكنهم كي يهلكون، أما البعض الآخر فقد تم تهجيرهم قسرا إلى موريتانيا أو عمق المغرب ومُنع من العودة إلى وطنه.

بعد مضي عام على بداية الانتفاضة اكتشفت القوات الأمنية خطورة الشباب الصحراوي فبدأت بتهديده لإفراغ الإقليم منه. كانوا يحشدون الشباب الصحراوي في أماكن مغلقة، ويقولون لهم: "ابتعدوا عن السياسة واتركوا الصحراء وافعلوا ما شئتم. خارج الصحراء أنتم أحرار. نضمن لكم من الآن ان لا نلاحقكم. فحتى لو تاجرتم بالمخدرات والبنات فلن تسأل عنكم الشرطة. أذهبوا إلى العمق المغربي أو حتى إذا أردتم الذهاب إلى إسبانيا فالزوارق أمامكم. في إسبانيا تحصلون على الأوراق والعمل وكل شيء... المهم ابتعدوا عن السياسة واطلبوا ما حلمون به. فهاهي أوروبا أمامكم والزورق في انتظاركم. ومن لا يتوفر على المال فهو رهن إشارته."

وحين تنتهي خطابات الترغيب تبدأ خطابات التهريب: "أما إذا بقيتم هنا وقبض على أحدكم في الشارع فلن يعرف أي بحر سيبتلعه."

إن مثل هذا الخطاب الرسمي الذي يعلن عنه رجال الأمن الرسميون يؤكد التورط المباشر للمملكة في عمليات دفع الشباب الصحراوي إلى الهجرة للتخلص منهم.

والواقع أن الكثير ممن تم تهديدهم بترك الإقليم ضاق بهم الأفق حاولوا الهروب من البطش، ووفرت لهم الأجهزة الأمنية زوارق موت بالاتفاق مع المتاجرين بالمهاجرين. والذي لم يدركه هؤلاء الأبرياء لحظتها هو أن تلك الزوارق كانت مفخخة، فانفجرت وهي قرب النشاط الصحراوي لتحدث عملية اغتيال جماعي راح ضحيتها حوالي 80 شابا صحراويا في ظرف شهرين (نوفمبر - نوفمبر 2006م).

وحين لم تستطيع القوات الأمنية المغربية السيطرة على الوضع، خاصة عمليات رفع الأعلام فوق المباني التي أصبحت عادة يومية، فكرت في حظر دخول القماش الملون وقنينات الصباغة إلى المنطقة، وهددت التجار الذين يبيعون هذا القماش، وزرعت عيونها قرب دكاكين الخياطين الصحراويين لمنعهم من خياطة الأعلام.

فخلال مدة وجيزة أصبح شعب كله عرضة للإرهاب المخزني المتنوع الذي يهدف إلى تصفية كل من تُشم فيه رائحة الوطنية الصحراوية. كان ما حدث لهم أشبه بما كان يحدث للسود من طرف نظام الاباتيد العنصري في جنوب إفريقيا عندما كان البيض يحكمون، مع فرق واحد أن ذاك الإرهاب كانت تقوم به أقلية، وهذا تقوم به أكثرية محتلة. في بعض الحالات تعرض المعتقلون إلى أنواع من التعذيب لا تخطر على بال بشري. هناك الكثير من المعتقلين من تم غطسه في بالوعات الصرف الصحي التابعة للسجن حتى فقد الوعي، وهناك من تم وضعه أيضا في حوض من الماء المتجمد أدى به إلى تقف الدم في عروق جسده ولم يعود له الوعي إلا بعد يومين. إنها حالات غريبة فعلا، لكنها حقيقية ووقعت هكذا دون مبالغة، وأحيانا لا يستطيع الوصف أن يأتي عليها لسونها. حين طلبت من بعض الشباب الذين راسلوني وصف لي ما حدث بكلمات مختصرة، كتب لي بعضهم: " أنه شيء فظيع وبشع." والبعض الآخر كتب في بريده الإلكتروني: " ما حدث لا يمكن وصفه. لا أحد يستطيع إعطاء صورة دقيقة للعنف الذي قامت به قوات الاحتلال."

5- العناد الحقوقي

ورغم هذه الأعمال الفظيعة التي تحول الإنسان إلى كائن حي فقط بلاروح، لم يسكت الحقوقيون عن ما يطالبون به. دخلوا معركة عناد قوية مع الاحتلال لدرع عنجهيته وغطرسه. فمنذ الانتفاضة الأولى سنة 92م والحقوقيون يحاولون الخروج من تحت شبكة الاحتلال التي تحيطهم. فمثلا في يوم 27 مارس 2003م قامت مجموعة تتكون من خمسة حقوقيين على رأسهم محمد ددش مرفقين بسبعة من أهالي ضحايا المختطفين بتكوين وفد للمشاركة في ملتقى عالمي خاص بالمعتقلين الصحراويين في جنيف تحت شعار " حرية وعدل للمختطفين الصحراويين". وحين حضروا كل شيء دبر لهم الأمن المغربي عملية "مافيوية" خسيصة. تركوهم حتى حصلوا على التأشيرات واشتروا التذاكر بمبالغ كبيرة ثم اعتقلوهم في مطار الدار البيضاء. استحوذوا على كل شيء كان في حوزتهم؛ جوازات السفر، التأشيرات وتقارير وأشرطة فيديو كانوا يريدون تقديمها للملتقى.

حين حدثت الانتفاضة الأخيرة بدأوا يدخلون إضرابات مفتوحة عن الطعام والنوم حتى يعلم بهم العالم ويقف إلى جانبهم في دفاعهم عن قضيتهم.

فابتداء من 12 جويلية 2005م قامت قوات الاحتلال بعملية تطهير كبيرة في صفوف الحقوقيين الصحراويين واعتقلت الكثير منهم وزجت بهم في السجن لكحل. في نفس التاريخ تمت محاكمة بعض المعتقلين عُرفوا باسم مجموعة الستة عشر الذين حكم عليهم بالسجن لمدة تتراوح بين ثمانية وثلاثة سنوات. ففي أول غشت 2005م، وخوفا من تجدد الغليان الشعبي الصحراوي المطالب بإطلاق سراح الحقوقيين، أقدمت سلطات الاحتلال على نقل خمسة حقوقيين، ممن تعتبرهم الشرطة قادة الانتفاضة، من السجن لكحل بالعيون إلى داخل المغرب. عملية النقل حدثت في جو مشحون بالغضب الصحراوي، وبالمقابل استعملتها الشرطة كي تنتقم منهم ومن قيادتهم للانتفاضة. سُحنوا في سيارات عسكرية في وضعية جد سيئة؛ عيونهم معصبة وأيديهم في الأغلال وحولهم حراسة مشددة. تم فصل علي سالم التامك عن المجموعة والذهاب به

إلى سجن ايت ملول، بينما ذهب الآخرون إلى سجن عكاشة قرب الدار البيضاء. في السجن بدأ المعتقلون إضرابهم المفتوح عن الطعام والنوم يوم 3 غشت 05م. في العيون وبالضبط من السجن لكحل تجاوب معهم زملائهم المعتقلون هناك وبدأوا هم الآخرون إضرابا مثلهم عن الطعام. مع حلول يوم 8 غشت كان هناك حوالي 39 معتقلا يخوضون معركة الأمعاء الفارغة كشكل من أشكال المقاومة السلمية ضد الاحتلال. ففي سجن أيت ملول طلب المحقق العام عرض علي سالم التامك على طبيب مختص في الأمراض العقلية كونه بدأ الإضراب بأسباب وهمية وهو ما لم يحدث في السجن من قبل. لكن حين كان يتحدث مع المحقق قال له علي سالم التامك: أنا مريض عقليا بسبب الاحتلال ومتى خرج سأشفى.

من داخل السجن استطاع إجراء لقاءات صحفية خاصة مع جريدة El-Mundo الإسبانية والتي عنونت اللقاء: "قد يغتالوني قبل أن أدافع عن نفسي". في السجن خضع هذا الحقوقي لعمليات إرهاب نفسي خطيرة. ففي كل مرة كانت السلطات تخبره أنه سيقتل وينفذ فيه حكم الإعدام بسبب تماديه في رفض وجودها، وانه متهم بتحريك الانتفاضة كلها.

لم تذهب عملية إضرابهم عدما وعبثا. فابتداء من 22 غشت حل وفد من المكتب المركزي للجمعية المغربية لحقوق الإنسان بالعيون للوقوف على وضع المضربين عن الطعام الذي فاق الثلاثة أسابيع وأصبح كارثيا. في الميدان لم تترك قوات الاحتلال الوفد يزور السجن والمستشفيات أين يعالج الجرحى فعاد غاضبا. على مستوى عالمي شنت منظمة العفو الدولية حملة مراسلات مع الحكومة المغربية للنظر في قضية المضربين الذين أصبحوا يحملون إلى قاعة المحاكمات بواسطة الشرطة بسبب عدم قدرتهم على حضور الجلسات. فمثلا حالة لحسن زريكنات المضرب عن الطعام الذي تم حمله من السجن إلى المحاكمة لعدم قدرته على المشي، حالة تحدث أول مرة في التاريخ تقريبا. فلما حضر مغميا عليه، و رآه المحقق أمر بعودته إلى عائلته، لكن ليس شفقة على حياته، إنما خوفا من أن يموت في السجن ويتحول إلى رمز آخر من رموز النضال الصحراوي السلمي. في 29 سبتمبر 2005م، بعد 59 يوما من الجوع توقف الإضراب عن الطعام مؤقتا بعد أن حطم فاعلوه الرقم القياسي، ودخلوا التاريخ كونهم قاموا به من أجل حق وطني.

في الحقيقة لقد نجح الإضراب عن الطعام الذي خاضه المعتقلون، وأعطى للانتفاضة وسيلة جديدة ناجعة تعتمد عليها كي تخترق حصار الاحتلال لها.

الانتفاضة كإستراتيجية...

" إن إدارة الاحتلال تبدو لي على درجة غير عادية من الغباء. ففي الوقت الذي نخرج نحن الصحراويين فيه إلى المدن نرفع الأعلام الوطنية الصحراوية، ونطالب بالاستقلال وتقرير المصير. تعود بنا هذه الإدارة إلى الماضي الاستعماري المقيت، وتقترح علينا حكما ذاتيا لا مكان له في أصل تفكيرنا وجذور نضالنا الطويل من أجل الحرية والاستقلال."

سيدي محمد ددش معتقل رأي صحراوي وناشط حقوقي.

أ) الانتفاضة كإستراتيجية .. الرياح تجري بما تشتهي سفينتها...

1) المغرب وتنفس الديمقراطية

قد يكون الكفاح السلمي الثوري الذي يخوضه الشعب الصحراوي في الأرض المحتلة حالة فريدة متفردة في التاريخ الحديث. فأشكال الانتفاضات التي عرفها عصرنا الحديث، باستثناء الحالة الفلسطينية والتمورية، لا يمكن ان تصنف تحت خانة الكفاح الثوري السلمي. يمكن مثلا أن نطلق عليها المعارضة السلمية التي تحدث لتغيير أنظمة ديكتاتورية، أو التي تريد أن تفرض توجهها سياسيا معيناً، أو من أجل إيجاد بديل للحالة الاجتماعية والاقتصادية البائسة. لقد حدث الكثير من مثل هذه المعارضات في دول أمريكا اللاتينية وأوروبا الشرقية مثل حالي رومانيا واورانيا ووصلت إلى ما أرادت.

بالنسبة لحالة الكفاح السلمي الذي يخوضه الشعب الصحراوي في وطنه المحتل، فهو كفاح ونضال ضد الاستعمار ومن أجل تقرير المصير فقط. فالصحراويون خلال نضالهم الطويل والمرير، لم يخطر على أذهانهم يوماً أن يسقطوا النظام المغربي، ولا يوجد في تصريحاتهم وأدبياتهم – حتى السياسية منها – إشارة ولو بسيطة إلى أن الانتفاضة هي من أجل تغيير الملكية في المغرب، أو من أجل تحسين الظروف المعيشية والاقتصادية والاجتماعية لهم. إن الصحراويين يعتبرون أن نوع الحكم في المغرب، رغم انه أذاقهم المر مرين، هو شأن مغربي داخلي، والمغاربة هم أصحاب القرار في تركه أو في تغييره متى شاءوا.

إن المطالبة بتقرير المصير الذي يخوض الصحراويون انتفاضتهم من أجله، سيجعل المغرب يخوض معركة مكلفة خارجياً وداخلياً، ومع مرور الوقت سيخسرهما. إن العالم يتجه إلى التمتع بالمزيد من حلاوة الحريات والديمقراطية، وهناك توجه عالمي جدي لتأييد المجموعات العرقية ذات الأصل الواحد والثقافة الموحدة مثل الحالة في التيببت والحالة الكردية وحالات أخرى مغمورة لم تناقش إطلاقاً، لكن عصرها آت. إن التوجه لحل مشكلات هذه المجموعات العرقية، للحفاظ على ثقافتها وهويتها لا بد أن يمر عبر تقرير المصير والديمقراطية، وهذا كله في صالح القضية الصحراوية التي أصبحت أشهر قضية تقرير مصير في الأمم المتحدة. من جهة أخرى المغرب لن يكون مثل الصين أو تركيا في الاستقرار والقوة. إنه بلد هش اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً ولا يتحمل الضغط كثيراً، خاصة أن الأصوات بدأت ترتفع من داخله تنتقد النظام، وتطالب بالديمقراطية الجراحية وليس بديمقراطية المساحيق التجميلية. إن الإلحاح على الديمقراطية الحقة في المغرب هو في صالح القضية الصحراوية أيضاً، لأن هذه الديمقراطية لا يمكن أن تكون في بلد يمارس وظيفة الاستعمار في عصر غير عصرها. فمن داخل المغرب صارت المجموعات الحقوقية والشخصيات تفكر بصوت مسموع، وتتجرأ على إعطاء رائها المخالف لرأي القصر (الطابو) بخصوص قضية الصحراء الغربية. إن مثل هذا التوجه الذي بدأ التأسيس له في المغرب يعتبر إحداث صدع مهم في أحد الطابوهات المغربية. إن رجلاً مثل إدريس البصري الذي كان يسمى جزار الصحراويين تاب الآن، وصار يصرح بملء الفم أن الاستفتاء في الصحراء الغربية هو الحل. على المستوى الإعلامي قامت المملكة بمنع الصحفي علي لمرايط من مزاوله عمله الصحفي لمدة عشر سنوات ودفع غرامة مالية قدرها 50 ألف درهم بسبب تصريح قال فيه "أن الصحراويين في المخيمات ليسوا محتجزين إنما لاجئين مثلما تقول المنظمات الدولية". أما على مستوى الأحزاب، وهذا تطور بالغ الأهمية، فإن التملل قد بدأ يعرف طريقه إلى صفوفها، وأصبح البعض منها يقول أن القيام والسجود مع القصر في قضية الصحراء الغربية هو مهزلة تاريخية. فحزب مثل النهج الديمقراطي، خرج عن ما يسمى طوق "الإجماع الوطني" حول كذبة الوحدة الترابية، وبدأ يسير في الاتجاه الصحيح مع التيار.

إن مغرب اليوم أو مغرب السنوات اللاحقة مجبر على السير في قافلة الديمقراطية وحقوق الإنسان، والالتحاق بهذا الركب لا بد أن يمر إجباريا عبر احترام حق الشعب الصحراوي في تقرير المصير.

إن استمرار انتفاضة الاستقلال الصحراوية سيجعل الشعب المغربي يتجراً ويخرج إلى الشارع، وسيجعل المعارضة تكون حقيقية وليست كرتونية، وفاعلة بدل مصفقة لسياسة القصر البالية. الآن أصبحت أصوات كثيرة ترسل إشارات تحذيرية للقصر، وتقول له إما أن تُحل قضية الصحراء الغربية أو ينفجر المغرب من الداخل مثل رومانيا وأوكرانيا والأنظمة التي تجدف عكس التيار. هناك أسئلة مهمة يجب أن تطرح في داخل المغرب مثل: ما جدوى الاستمرار في عناد المجتمع الدولي، والظهور في أعين العالم في صورة البلد الوحيد الذي لا زال يمارس الاستعمار؟ ما لذي استفاد منه الشعب المغربي والقوى السياسية من احتلال الصحراء الغربية منذ 75م غير الكوارث والأزمات؟ ألا يمكن أن يتحسن وضع المغاربة لو تم تأسيس المغرب العربي؟ أليسوا هم أحوج شعوب المنطقة إلى اقتصاد الجيران بسبب فقرهم وكثرتهم السكانية؟

2- ضوء أخضر...

إن الانتفاضة الآن هي استراتيجية، وهي أيضا معركة عناد ومقاومة يقوم بها شعب كامل من أجل مطلب حق إنساني معترف له به. فبتقييم الوضع عالميا وجهويا، نجد أن المناخ تغير سياسيا، وبشكل أكثر إيجابية، والاهتمام بحقوق الإنسان العامة صار أولوية، وتستطيع الآن أن تميل الكفة وتعادلها، خاصة الحقوق المنصوص عليها في القانون الدولي مثل حق تقرير المصير بالطرق السلمية. الشيء الآخر الإيجابي هو أن المغرب موضوع على رأس اللائحة السوداء في سجل المنظمات الدولية الكبيرة، خاصة منذ أن حاول قمع الانتفاضة الصحراوية وتصفيته بالقوة المفرطة. إن منظمات كبيرة مثل منظمة العفو الدولية، منظمة مرصد حقوق الإنسان، المكتب الأوروبي لاحترام حقوق الإنسان والمفوضية السامية لحقوق الإنسان التابعة للأمم المتحدة هي منظمات لها كلمتها في عصر الانفتاح، وتعتبر حكما دوليا يقيم الأنظمة ويتابع سيرة حقوق الإنسان. لقد كان موقفها من الانتفاضة أكثر من مشجع على استمرارها، فبعد أن حاول المغرب أن يستعيد أمجاد عصاه المخزنية تلقى التوبيخ تلو التوبيخ من طرف هذه المنظمات. ففي يوم 27 أكتوبر 2005م اصدر البرلمان الأوروبي توصية يقول فيها: " أنه قلق حيال تقارير منظمة العفو الدولية والمنظمة العالمية التي تحدثت عن التعذيب الذي قام به المغرب وأدى إلى خروق عديدة لحقوق الإنسان في الصحراء الغربية." وطلب البرلمان " حماية السكان الصحراويين واحترام حقوقهم الأساسية، خاصة حرية التعبير والتنقل." في يوم 30 أكتوبر 2005م أدان اليسار الأوروبي في أتيينا " سياسة الظلم والاضطهاد التي تقوم بها السلطات المغربية ضد الصحراويين."

ففي حين أعتبر المغرب أن الانتفاضة هي من أجل مطالب اجتماعية صرفة، رأت المفوضية السامية لحقوق الإنسان التابعة للأمم المتحدة في تقريرها الصادر في أكتوبر 2006م أنه " مهما كانت الحال فوضعية حقوق الإنسان مقلقة جدا في الجزء الذي يديره المغرب من الصحراء الغربية. حاليا لم يمنع الشعب الصحراوي فقط من حقه في تقرير المصير، ولكنه ممنوع أيضا من ممارسة مجموعة من الحقوق الأخرى. وخاصة الحقوق الوثيقة الصلة بحق

تقرير المصير مثل الحق في التعبير عن وجهة النظر بخصوص القضية. الحق في تكوين منظمات تدافع عن حقوقهم في تقرير المصير وإقامة التجمعات لجعل وجهة نظرهم مسموعة."

بمثل هذه التقارير فإن هذه المنظمات العالمية الكبيرة قد أعطت الضوء الأخضر للصحراويين ليواصلوا انتفاضتهم السلمية غير العنيفة التي تصبو إلى انتزاع حق مهم يؤيده العالم، ويحث الشعوب على المطالبة به. أن هذه المنظمات صارت قادرة الآن أن تغير سير قطار السياسة الدولية اتجاه قضية ما، وهذا قد يكون مهما جدا مستقبلا في وضعية الصحراء الغربية التي يؤخر حلها غطرسة النظام المغربي وحلفائه الكبار خاصة في مجلس الأمن.

على صعيد الأمم المتحدة، صارت القضية الصحراوية عقدة مؤرقة بالنسبة لها، فهي متواجدة في الإقليم، لكن لا هي قادرة على البقاء غير المبرر بعد رفض المغرب لحلولها، ولا هي قادرة على الانسحاب الانهزامي الذي سيفقدها الشرعية حين تفشل في قضية بسيطة من اختصاصها. إن تواصل الانتفاضة سيوقظ الأمم المتحدة ويزيد الضغط عليها لتتحرك من أجل تمكين الشعب الصحراوي من حقه، خاصة بعد فشل تمرير حلول تقفز على تقرير المصير أو تتجاهله. إذا لم يبق أمام الأمم المتحدة إلا حل واحد شرعي هو الحل الذي يطالب به المجتمع الدولي والمنظمات الحقوقية وهو تمكين الشعب الصحراوي من فرصة الاستفتاء على مصيره.

وإذا كانت الانتفاضة شكلت ستشكل ضغطا على الاحتلال، فإن الجمهورية الصحراوية ستضغط أيضا في المحافل الدولية من أجل الاعتراف بها في هيئة الأمم المتحدة. إن هذا الهدف صار الآن بين الأعين وفي متناول اليد، خاصة أن المجموعة الأفريقية والدول المعتدلة في العالم تدعم هذا المطلب، لأنه لم يعد هناك مبررا لرفضه بعد اتضاح أن المغرب هو الذي يعرقل الحل الشرعي وهو الاستفتاء.



ولدوا تحت ظل الاحتلال لكنهم أشد كرها له من آبائهم..

في خلفية القناعات الصحراوية الآن إن الانتفاضة المتواصلة في المدن المحتلة هي آخر ما بقي بين أيدي الصحراويين هناك من وسائل كفاح يضغطون بها على الاحتلال. فالمهم أن يبقى في الشوارع الصحراوية المحتلة مظهر من مظاهر الانتفاضة حتى لو كان

صغيرا. يجب ان لا نستهنئ بأهمية علم صحراوي يصبح معلقا فوق سلك كهرباء، أو بمنشور مرمي في شارع أو تخليد مجموعة أشخاص لذكرى وطنية. ولا يتوقف تواصل الانتفاضة عند هذه المظاهر فقط، فمثلا لبس اللباس التقليدي أ والعسكري الصحراوي والحديث باللهجة الحسانية ومقاطعة الانتخابات المغربية وخلق انتخابات موازية لها هي كلها أساليب تطور الانتفاضة وترتكب الاحتلال.

إن استراتيجية التواصل في الانتفاضة هي التي هزمت المخزن وأرهقته وجعلته يستسلم في النهاية. إن الاحتلال، منذ الانتفاضة الأخيرة، أصبح متأكدا نفسيا ومعنويا أن الصحراء الغربية خرجت من دائرة سيطرته، وأنه خسر قلوب الصحراويين إلى الأبد خاصة الذين ولدوا أثناء وبعد تواجده في الإقليم. إن خسارة معركة الانتفاضة هي مقدمة للاعتراف- من طرف الاحتلال- بحق الشعب الصحراوي في تقرير المصير.

(ب) انتفاضة الاستقلال... قراءة في تكتيكها وميزاتها..

تفردت انتفاضة الاستقلال عن غيرها من الانتفاضات السابقة بالكثير من المفاجآت العبقريّة. فمن مميزات أنها استفادت من كل دروس واستراتيجيات الانتفاضات السابقة وهصرتها في ملحمة جديدة تدخل التاريخ من بابه الواسع. وحين نقوم بقراءة للوقائع يمكن إن تستفزنا بعض المميزات كي نقرأ أكثر ونحلل واقع الانتفاضة.

1- رد فعل جريء...

إن بداية الانتفاضة تاريخيا على الأرض كفعل سلمي ملموس لم تأت هكذا وليد صدفة جميلة أو فعل فوضوي اعتباطي، بل هي فعل عبقرى مدروس كان سيحدث نفي الشاب الذي أشعل نفيه شرارتها أو لم ينفى. إن تاريخ الانطلاقة (21 ماي) يعني في التفكير الصحراوي إن الثورة المسلحة التي انطلقت في ذات التاريخ سنة 73م، تجدد انطلاقتها اليوم لكن بطريقة سلمية مع الأخذ بعين الاعتبار إن الأهداف هي ذاتها، وهي استقلال الشعب الصحراوي وتحرير أرضه، وان هذه الأهداف هي خطوط حمراء لا يمكن تجاوزها. من زاوية ثانية هي تملل شعبي لتنبية الأمم المتحدة، ولرفض الحلول العوجاء التي يتشدق بها النظام الملكي مثل الحكم الذاتي والحل السياسي، وأكثر من ذلك هي رفض لسياسة الأمر الواقع المفروضة على الصحراء مثل استغلال الخيرات واحتقار العنصر الصحراوي. لقد أظهرت الانتفاضة للعالم أن الإنسان الصحراوي الرازح تحت الاحتلال، والذي كان النظام المغربي يتوسم فيه قبول الحل غير الشرعي، كان أول من رفضه وحتى قبل أن ترفضه البوليساريو رسميا.

2- الصدام السلمي..

استفادت انتفاضة 2005م المتواصلة من دروس سابقاتها، كونها عمدت إلى أسلوب جديد يمكن أن نطلق عليه الصدام السلمي، وهذا المصطلح يعني في تكتيك الانتفاضة التظاهر سلميا لكن في نفس الوقت دفع الاحتلال إلى فقدان السيطرة على الأعصاب والأدوات ليستعمل القوة ويرتكب جريمة في ساحة المظاهرة. لقد خرج المتظاهرون إلى الشارع بأسلحة بسيطة سلمية متعارف عليها في الانتفاضات العالمية مثل الأعلام والشعارات والرموز الصحراوية، لكن ذلك كان بمثابة سكب البنزين على النار. فمع الساعات الأولى للمظاهرة فقد الاحتلال توازنه، ولم يعرف كيف يتصرف تصرفا حضاريا، فهجم على المتظاهرين بوحشية حتى

سالت الدماء في الشارع، وهذا ما كان يريده المتظاهرون لإنجاح خطتهم وليثبتوا للعالم أن المغرب محتل دموي لا يتحدث إلا بالعصا ولو كان ذلك مع متظاهرين مسالمين. إن الدم الذي سال والعظام التي كسرت والجرحى الذي فقدوا القدرة على الحركة أوضح للعالم أن هؤلاء المتظاهرين يريدون حقا، هم مستعدون للموت من أجله، وإن ما يقول عنهم المغرب هو زيف. في الانتفاضات السابقة كان المتظاهرون يخرجون إلى الشارع ويتظاهرون سلميا فقط فيتم تفريقهم بسرعة دون أن تترك المظاهرة أثرا يراه العالم، أما الآن فقد اخترعوا الصدام السلمي، ودعوا الاحتلال إلى خوض معركة مادية معهم بقيت شواهدا وعلاماتها في الشارع والمستشفى وصورت وشاهدها العالم الذي اقتنع أن هؤلاء يدافعون عن حق.

3- الشمولية...

الشيء الآخر الجدير بلفت الانتباه في هذه الملحمة المحمودة هي أن مساحة فعلها غير محدودة بمكان، بقدر ما هي محدودة بالإنسان. فهذه المرة لم تبق فقط الصحراء الغربية بحدودها الجغرافية هي مسرح الوقائع، بل عمد فاعلوا الانتفاضة إلى أن تكون المعركة شاملة، وفي كل مكان يتواجد فيه صحراوي سواء في الأراضي المحتلة أو في جنوب المغرب أو في العمق المغربي مثل الرباط والدار البيضاء. ففي كل مكان أو ساحة يتواجد فيها صحراوي حدثت مظاهرات وانتفاضات، وحدثت صدامات. فالعمق المغربي المغيب من طرف النظام عن معرفة أي شيء عن قضية الصحراء، رغم طول عمر احتلالها، وجد نفسه هذه المرة مسرحا للانتفاضة الصحراوية المطالبة بالاستقلال. فالصحراويون المتواجدون في الرباط ومراكش، سواء كانوا طلبة أو جالية أو مهاجرين، أوصلوا القضية والانتفاضة إلى عمق دولة الاحتلال. وفي كل هذه الأماكن التي وصل إليها فعل الانتفاضة، لم تبق المظاهرة مقتصره على الشارع فقط، لكن اعتمدت تكتيكها على التظاهر في كل مكان يتواجد فيه صحراوي حتى ولو كان مكانا صغيرا. لقد حدثت الانتفاضة في القسم والمصنع والسجن والمحكمة، وفي كل مكان فيه تماس مع الاحتلال. من خلال هذا الفعل عرف المغاربة البسطاء أن الشعب الصحراوي حقيقة موجودة حية لا يمكن القضاء عليها. فحتى في المحاكم ومخافر الشرطة كانت الخطة تقتضي أن يتظاهر النشطاء والحقوقيون أثناء المرافعات لإرباك السلطات والقضاة، فقلما حدثت محاكمة دون أن يرفع فيها العلم الصحراوي ويردد النشيد الوطني والشعارات.

4- الإعلام والاتصال

منذ 75م استطاع مخزن المملكة المغربية أن يقيم حاجزا سميكا من الصمت والحصار حول ما يجري في المدن الصحراوية المحتلة، فكانت تحدث المظاهرات والانتفاضات في هذه المدن، لكن بالكاد نعلم بها وبدون تفاصيل، خاصة ما يتعلق بانتهاكات حقوق الإنسان. إن مثل هذا الحصار جعل أبطال الانتفاضة ينتهجون تكتيك الاختراق لهذا الطوق بخلق شبكة إعلام واتصال محلية لفضح ما يحدث. فحتى يحتفون بالانتفاضة ويعطونها بعدها الإعلامي استغلوا، وسائل الاتصال العالمية أحسن استغلال. كانوا يقومون بتصوير تفاصيل كل انتفاضة أو مظاهرة بالصوت والصورة ويثون على الأنترنت، وفي بعض الأحيان كانوا يذهبون إلى منازل الجرحى والمصابين ويصورونهم على أسرته ثم يثون ذلك على الشبكة مباشرة. ولا يكتفون بهذا بل يعمدون إلى تسجيل مراسلات حية عن ما يقع ويرسلونها للإذاعة الوطنية مباشرة من ميدان الانتفاضة لطمأنة سكان الأراضي المحررة والمخيمات وتشجيعهم. ورغم بساطة الفكرة إلا أنها أشعت نورا وهاجا على ما يجري في الداخل، وكسرت جدار الظلام الذي

كان يلف المنطقة لعقود طويلة. إن ما شاهدنا من صور ملتقطة من داخل السجن لكحل جعل شعور رؤوسنا تقف من هول المشهد، وكم أحسنا بالصدمة المريعة ونحن نشاهد على التلفزيون أثار التعذيب الهمجي على أجساد المتظاهرين الذين طالتهم العصا المخزنية السيئة الذكر عالميا. لقد نجحت خطة الاتصال في نقل الصورة حية إلى العالم خاصة إلى المنظمات الحقوقية الدولية التي كانت ممنوعة من دخول الإقليم وواقعة تحت تأثير الدعاية المغربية المغلطة. فمثلا صور مثل التي هُربت من السجن لكحل، أو صور وجه مينتو حيدار المخضب بالدماء، أفقدت النظام المغربي صوابه وعرت وجهه البشع.

5- سلاح الانتفاضة... العلم الوطني البطل

على مستوى عام اعتمدت الانتفاضة استراتيجية الطابع السلمي لتمرير الفرصة على الاحتلال الذي حاول في المرات السابقة أن يلصق بها تهمة أعمال الشغب والتخريب. ورغم أن المتظاهرين استعملوا وسائل بسيطة في انتفاضتهم إلا أن تأثيرها كان أشد من تأثير الأسلحة التي يلجأ إليها المتظاهرون الغاضبون مثل القنابل والحجارة والحرق والتدمير. لقد لجأ المتظاهرون إلى سلاح الأعلام الوطنية بكثافة والشعارات وترديد الأغاني الصحراوية المعادية للاحتلال، وهذا دفع المخزن إلى التدخل العنيف والإفراط في القوة. فحين يخرج المتظاهرون إلى الشارع يعلقون الأعلام على أسلاك الكهرباء، ويكتبون على الجدران ويرددون الشعارات المناهية برحيل الاستعمار، فيضطر هذا الأخير إلى تجنيد جيش من البشر والسلام لنزع علم معلق فوق الأسلاك أو إلى محو الشعارات المكتوبة بالصباغة على الاسفلت والجدران.

6- أبطال الانتفاضة...

لقد بنى المغرب احتلاله للصحراء الغربية على تدمير الإنسان الصحراوي بكل الوسائل البشعة، وظن انه نجح، لكن الانتفاضة الأخيرة كشفت عن ظاهرة فاجأت الجميع خاصة الاحتلال، وهي أن كل الذين حملوا لواء الانتفاضة، وبنسبة 70٪ ولدوا وترعرعوا في ظل الاحتلال وتحت حصاره. إن خروج هذا الجيل إلى الشارع، وبهذا الحماس والغضب، أظهر انه أشد كرها للاحتلال من الأجيال التي سبقته. إن ظاهرة الانتفاضة وطفرة أبطالها الذين كان الاحتلال يراهن على تدجينهم قد أصابت السياسة المغربية في الصحراء بصدمة مميتة. فبعد ما حدث تأكد المغرب وبصفة نهائية انه خسر معركة كسب قلوب الصحراويين، وانه لن يربحها تاريخيا حتى لو بقي في الصحراء مائة عام. لقد انقلب عامل الزمن على الاحتلال، فبدل ان يكون هؤلاء الذين ولدوا في ظله أكثر تآلفا معه وذوبانا فيه، أصبحوا هم الذين يتظاهرون وينظمون الانتفاضة ويشرفون عليها.

7- التواصل وطول النفس...

إذا كان الاحتلال قد استطاع في مرات عديدة الالتفاف على انتفاضات ماضية، وأطفئ شعلتها خلال أيام وقطع حبال تواصلها، فإنه هذه المرة قد مني بهزيمة ساحقة حين حاول قمع انتفاضة الاستقلال. هذه الانتفاضة استطاعت أن تستمر ويطول نفسها، وتتواصل في كل مكان يوجد فيه صحراوي له تماس مع بعض رموز الاحتلال. أعتمد تكتيك التواصل لدى الانتفاضة على إرباك الاحتلال، فكلما ظن أنه أخمدتها في مكان تستعر في مكان آخر بذات الاندفاع وبنفس الوسائل ومن أجل نفس الأهداف؛ فحين تتوقف في الشارع تبدأ في الجامعات والمدارس أو في الأحياء البعيدة دون التقييد بمكان أو أفراد، فالجميع واعي بمهمته الوطنية وينفذها تلقائيا. الشيء الآخر الجدير بالوقوف لتأمله هو أن هذه الانتفاضة لم تعتمد أسلوبا واحدا مثل الاعتصام في الشارع

مثلا، لكن اعتمدت تكتيكها على إنهاء العدو معنويا بتنوع الأساليب والأشكال والاستمرارية. كانت مرة تلجأ إلى أسلوب الاعتصامات، وأحيانا الإضرابات عن الطعام، ومرات أخرى التظاهر في قاعات المحكمة ورفع العلم الصحراوي. كان هذا التكتيك في مجمله يحافظ على غاية الاستمرارية؛ فإذا تم تفريق الاعتصام والاحتجاج بالقوة يتظاهر الناس في الشارع احتجاجا على الإفراط في القوة، وفي حالة اعتقال بعض المحتجين تحدث اعتصامات لإطلاق سراحهم ومسيرات مؤيدة لهم، وفي هذه الحالة تصبح الانتفاضة حلقة متواصلة لا تتوقف في أي وقت.

8- تحريك الجمود...

قبل تواجد الأمم المتحدة كانت المعارك والانتصارات العسكرية تصنع التوجه العام للصحراويين، وكانت قلوبهم تخفق مع كل انتصار، لكن بعد حدوث ما سُمي وقف إطلاق النار ذهبت القضية إلى جهة الظل، ولم تعد في أولويات العالم والإعلام والصحافة، وكاد الصحراويون يُنسَوْنَ نهائياً. حين جاءت الانتفاضة أعادت القضية إلى مكانتها، وأصبحت على كل لسان وفي كل ميدان. من جديد انشغلت الصحافة الدولية بالحدث، وفُرض على الأمم المتحدة أن توفد بعثة لتقصي الحقائق إلى عين المكان، وأن تعد تقريرا يوضح المغرب ويضعه على رأس الدول ذات السمعة السيئة في مجال حقوق الإنسان وحقوق الشعوب. فبسرعة أصبحت القضية الصحراوية هي العنوان، والتفتت الجمعيات والمنظمات الدولية إلى الوضع في المدن المحتلة، فتعالت الأصوات مطالبة بتدخل المجتمع الدولي لحماية المدنيين الصحراويين وإنهاء الاحتلال حتى لا يحدث مزيد من انتهاكات حقوق الإنسان. وبقراءة الحدث من زاوية ثانية، لم يبق الحقوقيون الصحراويون مكتوفي الأيدي في انتظار أن يتحدث العالم عن قضيتهم، بل سارعوا إلى الاتصال بالعالم الحقوقي ووجهوا رسائل إليه ليطلعونه على ما يجري في الإقليم من خرق للقانون الدولي، ومن دوس للحريات الفردية.

9- حقوقيون... سفراء

في الانتفاضات السابقة كان المغرب يلتف بسرعة على المظاهرات، وبسرعة يغسل الشوارع والجدران من أثار ما حدث ويبقى الفعل حبيس المدن المحتلة فقط. في هذه الانتفاضة قرر الحقوقيون الصحراويون إيصال صوتهم إلى الخارج لا عن طريق الرسائل والمكالمات الهاتفية فقط، لكن عن طريق الاتصال الملموس بالفعاليات الحقوقية في الخارج. فبعد الأحداث استطاع الكثير من الحقوقيين أن يسافر إلى الخارج بعد وقوف المنظمات الدولية إلى جانبهم. في الخارج وصل هؤلاء إلى أماكن لم تصلها الدبلوماسية الصحراوية من قبل، وزاروا جمعيات ومنظمات لم تعرف سابقا أي شيء عن القضية الصحراوية. ولم يذهب هؤلاء فارغي الأيدي، بل حملوا معهم الدليل بالصوت والصورة، فعرضوا الأشرطة وأقاموا المعارض والندوات الصحفية والمهرجانات التضامنية، وأدلو بشهاداتهم الشفهية وأبانوا عن الشهادات المرسومة على أجسادهم بفعل التعذيب. فسيدي محمد ددش مثلا حاز على جائزة رافنو النرويجية للسلام، ودخل التاريخ كونه واحدا من الذين قضوا أطول مدة في السجن. وبسبب صدق مسعاهم تجاوب العالم معهم، فمناضلة مثل مينتو حيدار فتحت مدن كثيرة لم يزرها صحراوي قبلها، وحصدت جوائز عالمية لم نسمع أن مناضلا حقوقيا نالها من قبل، وهذا اختراق باهر تاريخي سيسجله التاريخ للانتفاضة.

10- بعثُ الأمل...

شكل وقف إطلاق النار وعدم تنظيم الاستفتاء وإصرار الأمم المتحدة على التواجد السلبي في المنطقة إحباطاً ل نفسية الصحراويين أينما كانوا خاصة في مخيمات اللاجئين. فبعد أن كانوا يصنعون الحدث بالمعركة العسكرية ومعركة الاستفتاء وجدوا أنفسهم يصنعونه بالانتظار. لم يعد أمامهم مجال للتحرك، وأصبحوا أسرى وضع خطير يفرض عليهم القبول به بكل سلبياته. فهم لا يستطيعون طرد الأمم المتحدة لتأليب العالم ضدهم، وهذه الأخيرة غير قادرة على تحقيق طموحاتهم القانونية، وهم غير قادرين على انتظار " غودو" مزيداً من الوقت في اللجوء.

اندلاع الانتفاضة نفسُ عنهم غلواء الغضب الذي كانوا يكتوون به طيلة السنوات الضائعة، وجدد الأمل في نفوسهم. لقد بشرت الانتفاضة هؤلاء بأن المتواجدين منهم مع الاحتلال حملوا راية مواصلة الكفاح بالانتفاضة السلمية، وأعادوا للوطن مجده الذي كانوا يتخوفون أن لا يعود قريباً في ظل الظروف الدولية الحالية الظالمة. وعلى العموم كان للانتفاضة تأثير إيجابي على النفسية الصحراوية، فأمدتها بدفق جديد من الأمل والثقة بالنفس، وجعلت الصحراوي يحس مجدداً أن قضيته بُعثت من جديد، وأن هناك خلف الربوة يوجد أمل.

خاتمة:

حصائل باهرة... وفي الأفق المزيد...

حققت انتفاضة الاستقلال إنجازات تاريخية عملاقة لم يكن العالم يتصور أن تتحقق في ظل الرعب والقبضة الحديدية المغربية المعروفة تاريخياً وعالمياً بهمجيتها. فقد حازت للقضية الصحراوية على شهرة لم تحوز عليها انتفاضة من قبل، وفرضت على المغرب، بفضل طول نفسها، أن يراجع سياسته اتجاهها، وأن يرفع مرغماً يد بطشه عن المظاهرات السلمية. فبعد ما حدث أدين المغرب من طرف المجتمع الدولي، وأصبح موضوعاً تحت المجهر بسبب سوء تصرفه مع الانتفاضة السلمية. إن الصورة التي ظهر بها الاحتلال والتوبيخ الذي تلقي يعطي للانتفاضة مجالاً أوسع للحركة السلمية، وسيحرر المواطن الصحراوي من الخوف الذي سببه له التجاهل الدولي له من قبل أثناء وقوع انتفاضات سابقة. إن ما حققته الانتفاضة من تطور شكل بداية الاستيلاء الفعلي للصحراويين على رموز سيادتهم فوق وطنهم، فالعلم الوطني يرفرف كل يوم فوق المباني، ومع الوقت سيتألف الاحتلال معه ويقبل به كحقيقة، أما الساحات والبيادين فكلها الآن تحمل أسماء رموز صحراوية بعد أن أزيحت أسماء الاحتلال. إن الذي يعرف أن 15% من قوات الأمن المغربية متواجدة في الصحراء الغربية لمهمة القمع يعرف أن الانتفاضة نجحت في تخطي هذه القوة وقهرتها. إن مثل هذا الانتصار يجعل الانتفاضة تقطع خطوة إلى الأمام في سبيل إفراغ التواجد المغربي في الصحراء المحتلة من محتواه بانتزاع رموز السيادة منه وتركه يمارس دور الشرطي المحتل فقط.

المصادر والمراجع:

- جريدة الصحراء الحرة كل الأعداد التي صدرت سنوات 2004م، 2005م، 2006م
- تقارير منظمة العفو الدولية ابتداء من سنة 1992م
- الملف الإعلامي الذي يعبه قسم الإعلام التابع للرئاسة 2002م- 2005م.
- تقارير البعثات الدولية التي زارت المنطقة مثل المفوضية السامية لحقوق الإنسان- ماي- جوان 2006م
- شبكات الأنترنت : arso ، دفاتر الصحراء، الأمل، إلخ....
- ملاحظة: أشكر كل المناضلين الذين راسلوني بالبريد الإلكتروني من المظاظق المحتلة و سطاعدوني عطى إنجاز هذا العمل البسيط.

الفهرس:

إهداء

استهلال

-المقال الأول:

محاولة تصفية شعب

(أ) هتك حقوق شعب

(1) - إمكانية التصفية

(2) لن ترون الشمس بعد اليوم

(3) الأرقام تتحدث عن عن تفاصيل مروعة.

(4) شهادات الذين رأوا الشمس

(ب) تغيير المشهد الديموغرافي للأقليم:

(1) إرهاب الصحراويين بالمستوطنيين

(2) التهجير: محاولة غرس الطلح في حقول الطماطم

- المقال الثاني:

تكريس المقاومة السلمية: بشائر الربيع الصحراوي

(أ) أسلوب الانتفاضة السلمية

(1) بداية خوض كفاح الشوارع السلمي

(2) العلم الأزرق... العلم الأحمر

(3) الربيع والعصا

(4) الحل هو الإمعان في الانتفاض

(ب) انتفاضة 1999م:

(1) مشعل العمل الحقوقي في يد والعلم الصحراوي في يد

(2) نماذج لنجاح العمل الحقوقي:

- محمد ددش يخرج إلى الشمس

- العمل الحقوقي يكسر الحصار

المقال الثالث:

انتفاضة مفتوحة حتى تقرير المصير

(أ) انتفاضة الاستقلال

(1) من الظلم... تولد الانتفاضات

(2) وبدأ الفيضان الشعبي الصحراوي...

(3) زفاف شهيد الانتفاضة

(ب) الفيضان وإرهاب المخزن

(1) إرهاب شعب أعزل

(2) النشاطاء الحقوقيون... وأجندة التهيب

(3) الحرق ليكون قدوة..

(4) أترك الإقليم.. واترك السياسة وإلا...؟

المقال الرابع:

الانتفاضة كإستراتيجية..

(أ) الرياح تجري بما تشتهي سفينتها..

(1) المغرب وتنفس الديمقراطية

(2) ضوء أخضر

ب) انتفاضة الاستقلال: قراءة في تكتيكها ومميزاتها

خاتمة